

حَمَد الفتى الصقار

رندة حموي دواجي



المحتويات

حمد، الفتى الصقار

من أين تأتي الجبارى؟

الخال سعيد، رجل الأبحاث

خليفة، رجل الأعمال

في حديقة الحيوان

رقص الجبارى

تغير في الرأي

الصحراء

يوم من الاكتشافات

الصقر الأشقر

عفراء ومطر

الصقور، الجبارى، والإنسان

حول نار المخيم

حامي البيئة الصغير

المفاجأة

القنص

قصة خليفة

العودة إلى المدينة



المحتويات

حمد، الفتى الصقار

كانت رحلة العودة في باص المدرسة طويلة جداً، وبدأ لحمد، الذي يبلغ الثانية عشرة من عمره، إنها لن تنتهي أبداً إذ كان لديه خبر سيفرح والديه.

وسلك الباص طريقه في المدينة حول الدوارات والحدائق، مجتازاً الدكاكين و المخازن، داخل الأنفاق وعبر الجسور، يتوقف بين الحين والآخر لإشارات المرور أو نزول التلاميذ.

لم تكن الرحلة من المدرسة إلى البيت قصيرة يوماً، لكنها بدت اليوم أطول من المعتاد بكثير. فحمد لا يقوى على الانتظار ليطلع والديه على النتائج الممتازة لامتحانات نهاية الفترة، ولا بد أنهما سيكونان فخورين به جداً. و غمره شعور رائع؛ فأمامه الآن -وبعد أن أنتهت فترة الامتحانات- ثمانية أيام من الحرية: لا مدرسة، لا دراسة، ولا مسؤوليات. أيام ثمانية يكون خلالها حراً طليقاً، كطير الحمام الذي رآه يطير فوقه. وفكر قليلاً و استدرك.. لا.. بل سيكون حراً كالصقر!!

وسرحت أفكار حمد قليلاً، ثم حلقت عالياً على جناحي صقر، مبتعدة عن الشوارع والأبنية وعن ضجيج المدينة وضوضائها، ومضت باتجاه الصحراء العربية الهادئة التي حدثته أمه عنها كثيراً، تلك الصحراء البديعة التي كانت موطن إقامة الطفلين عفراء ومطر. ورغم إن حمد لم يعيش في الصحراء، فإنه يشعر بأنه يعرف الحياة فيها معرفة تامة. فقد أجادت أمه في وصف البر، وحدثته عن البدو، وعن خيامهم المغزولة من شعر الإبل، فوصفتها له بشكلها ورائحتها وملمسها، وتحدثت قصصها المثيرة عن القنص بالصقور المدربة في اصطياد طائر الحبارى المتخفي، وعن جمع البدو للحطب واستخدام شجر الغضا لطبخ الطعام عليه. شعر حمد و كأنه يعرف هؤلاء البدو، و يعرف كل ما يحيط بهم من نبات و حيوان. إنه يعرف كل شيء عن حياتهم. و كان يغمره أحياناً شوق قوي

المحتويات

إلى الصحراء التي يحس و كأنه عاش فيها مع عفراء ومطر، و اتخذ منها، مثلهما، مكاناً لإقامته.

شدت أصوات السيارات أفكار حمد إلى المدينة الصاخبة، و إذ بباص المدرسة يقترب من الشارع الذي يسكنه. و شعر بموجة من الحماسة عندما توقف الباص أخيراً أمام منزلهم الأبيض اللون.

قفز حمد من الباص و شعره الأسود يتطاير و هو يصيح مودعاً رفاقه: "عطلة سعيدة!!" و سمعهم يردون تحيته وقد وقف على الرصيف ملوحاً لهم: "و أنت أيضاً." و خلال الخطوات التي سارها نحو منزله كان حمد يتساءل: "ترى هل سأستمتع بعطلتي مع عائلتي؟ كل ما أتمناه هو أن لا يكون أبي منشغلاً جداً كعادته."

كانت أمه مريم تنتظره عند المدخل، فنادى ملوحاً لها بورقة علاماته وهو يخلع حذاءه أمام الباب: "ماما .. ماما .. هذه نتائجي. لقد أبدعت في الامتحانات. انظري!!"

ألقت أمه نظرة سريعة على النتائج، و ضمته، مع حقيبته المليئة بالكتب التي يحملها على ظهره، في عناق حار وهي تكيل له كلمات التهئة: "هذا رائع يا أبو شهاب!! بيض الله وجهك!!"

وإذ أسرع حمد نحو الهاتف وهو يقول: "سأتصل بأبي .. سيكون سعيداً جداً!!" أخذت أمه تنزل حقيبته عن ظهره برفق قائلة:

- "تمهل يا ولدي .. لن تستطيع التحدث إلى أبيك الآن." ونظرت في عينيه البنيتين المتسائلتين و أضافت: "إنه الآن في الطائرة."

أجاب حمد: "في الطائرة؟.. هل سافر أبي من جديد؟.. أحس حمد بأن حماسه تتلاشى ليحل



المحتويات

محلها شعور بخيبة الأمل. فوالده منشغل دائماً، و هو لا يكاد يجد الوقت لتبادل الحديث معه. كان حمد يعرف أن عمل والده مهم، لكن خبر نجاحه مهم جداً جداً!!

شعر حمد بيد تشدّ ثوبه من الأسفل.. إنها أخته الصغيرة. نظر إليها وقال: "عائشة.. والدنا غائب و لدي خبر يهمله. هل تفهمين ما أقول؟.."

هزت عائشة رأسها الصغير، وكأنها تقول نعم. طبعاً لم تفهم شيئاً، فكيف لها أن تدرك ما يتحدث أخوها عنه، و هي لم تتجاوز بعد السنوات الثلاث من عمرها؟.. و لكنها ما لبثت أن فاجأته بمدّ إصبعها الصغير، و تقطيب ما بين حاجبيها و هي تعض على شفتيها... فانفجر حمد ضاحكاً. إنها تقلده، فهذه هي تعابير وجهه الآن.

انحنى حمد فحملها بين ذراعيه و راح يدور بها.. و رنين ضحكاتهما يملأ البيت، بينما تطايرت ضفائرهما و أطراف ثوبها. كم هي ظريفة "عواشة" الصغيرة!!

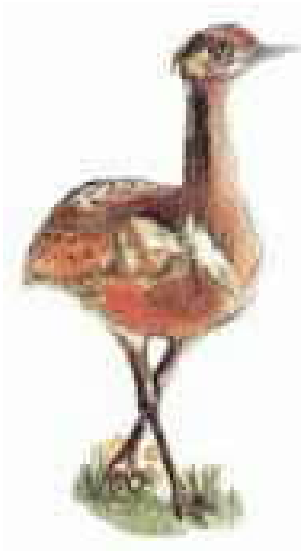
ألقي حمد بنفسه على الأريكة، و شغل التلفاز دون أي اهتمام. فهو، على الرغم من أنه لم يعتد قضاء أوقات كثيرة مع أبيه، إلا أن غيابه الآن، خلال العطلة، أشعره بالوحدة. سأل أمه: "متى يعود أبي؟..". أجابته: "لن يطول غيابك يا حبيبي، يومان، و لا يلبث أن يرجع بعدهما."

شعر حمد برنة حزن في صوت أمه. ترى، هل هي أيضاً تفتقد أباه؟.. وفجأة، قطع صوتها سلسلة أفكاره و هي تقول منبهة: "رفقاً بجهاز التحكم يا حمد!!..". عند ذلك فقط، لاحظ حمد بأنه يضغط بنزق على الأزرار، و يقلب الأقنية الواحدة تلو الأخرى.

المحتويات

من أين تأتي الحبارى؟

رنّ جرس الهاتف فجأة، فشعر حمد ببارقة أمل.. تراه أبي؟. رفعت مريم السماعة، و ما لبث حمد أن رأى الابتسامة تملو وجهها و هي تقول: "أحقاً؟. بالله عليك؟. و متى ذلك؟. أنت على وشك الصعود إلى الطائرة؟. كلا، إن خليفة خارج البلاد، و لكنه لن يغيب طويلاً. ياه!! علي الرحب و السعة يا أخي الحبيب، و يا أهلاً و سهلاً!!" أعادت مريم سماعة الهاتف إلى مكانها و قالت: "حمد.. أتدري؟. إنه خالك سعيد، كان يتحدث من مطار بكين، و سيكون عندنا فجر الغد، أليس هذا رائعاً؟.."



لم يكد حمد يصدق الخبر. الخال سعيد!! فهو لم يره منذ شهور عديدة عندما غادر البلاد في مهمة عمل. ثم تمتم حمد و على وجهه علائم التعجب: "بكين؟.."

ابتسمت مريم و قالت: "بكين هي عاصمة الصين، وقد انضم خالك إلى فريق الأبحاث الذي يزورها لدراسة أساليب حماية طائر الحبارى و الصقور في مناطق تكاثرها. أتذكر أحاديثنا السالفة عن طيور الحبارى و الصقور؟.."

هز حمد رأسه بالإيجاب. فهو يذكر بالطبع كل ما أخبرته به أمه عن هذين الطائرين الفريدين.

و استرسلت أمه قائلة: "الحقيقة أنه تبين لخالك أن أكثر طيور الحبارى و الصقور تأتي إلى شبه الجزيرة العربية في فصل الشتاء. و مع حلول الربيع و عند ارتفاع حرارة الجو تهاجر عائداً إلى الشمال حيث تتكاثر.

قال حمد: "الآن فهمت. فهذا سبب سفر خالي سعيد شمالاً إلى الصين. "بكين" .. إن لهذا الاسم جرس موسيقي جميل! يبدو أن طيور

المحتويات

الحبارى و الصقور تقود خالي بشكل مستمر إلى أماكن ذات أسماء موسيقية الجرس. في البداية، كانت المدن التي قصدتها خالي تنتهي أسماءها بلفظ "آن"، أما الآن .. الآن؟ .." و ضحك حمد : "هل فهمتها يا أمي؟ الآن تنتهي أسماءها بلفظ "إين".

ضحكت مريم رغم أنها لم تفهم ما يعنيه ابنها بالضبط و قالت: "ماذا تعني؟"

فقال حمد: "أتذكرين سفر خالي في الماضي لإجراء أبحاثه في الباكستان؟ ثم تبعها بإيران، و كازخستان ثم قيرغيزستان و أوزبكستان؟ و لا تتس يا أمي، أن خالي يعمل في المركز الوطني لبحوث الطيور في بلدة سويحان!!"

فضحكت مريم ملء قلبها. إن طريقة ربط حمد بين الأمور كان دائماً يفاجئها.

كان حمد يعرف مدى العلاقة الحميمة التي تربط أمه بأخيها، كما يعرف عمق الصداقة القائمة بين أبيه خليفة و خاله سعيد، اللذين قضيا طفولتهما في صف دراسي واحد. كانت مريم طفلة صغيرة عندما انتقل سعيد إلى المدينة ليلتحق بالمدرسة، ثم تبعته هي بعد عدة سنوات إثر وفاة والديهما. وكانت الصداقة القوية التي تربط بين خليفة و سعيد سبباً في ترحيب الأخير، فيما بعد، بزواج صديقه خليفة من أخته مريم.

لم يخف على حمد البريق الذي كان يشع من عيني أمه العسليتين، وهي تقوم بتهيئة غرفة الضيوف لأخيها، و الابتسامة تكسو وجهها و هي تقول: "سيعود إلينا سعيد سالماً غانماً بإذن الله." إن حمد يذكر صحبة خاله الممتعة، وكم كان يسعده أن يلقيه سعيد بالفتى "الصقار".

قبل أن يذهب حمد إلى فراشه تلك الليلة، قضى بعض الوقت يقرأ عن الصين في موسوعته، وقد تعجب لضخامتها إذ بلغت مساحتها ٩, (كتابة...) كيلومتراً مربعاً و بلغ تعداد سكانها ٢٣٢ (كتابة...) مليون نسمة. ووجد حمد أن الصين تقع في شرق آسيا و

المحتويات

يجاورها ١٥ (كتابة...) بلداً و ثلاث بحور. إنه لمكان جميل هذا الذي يعود منه الخال سعيد غداً و لا بد و أنه سيكون لديه أحاديث مثيرة. كان حمد ينتظره بفارغ الصبر. و راح يفكر: "ربما أحلم الليلة بعفراء و مطر... و قد أطيّر إلى الصين مع الحبارى و الصقور." و تتهدّ حمد بكثير من الرضى.. لقد بدأت العطلة بداية حسنة!!

الخال سعيد، رجل الأبحاث

في صبيحة اليوم التالي، فوجئ حمد و هو يهبط درجات السلم بضحكات عالية تتردد في أرجاء البيت. ماذا؟.. الخال سعيد و أمه؟.. إنه لا يذكر أنه سمع مثل هذه الضحكات من أمه. دخل غرفة الجلوس ليجد أمه و خاله جالسين أرضاً، مستتدين إلى الأريكة تتوسطهما دلة القهوة. و بدا له أنهما كانا يحتسيان القهوة حيناً، و يتحادثان حيناً، و يضحكان أحياناً. ركض حمد نحو خاله و هو يصيح: "خالي سعيد!!." و أسرعت مريم لإنقاذ دلة القهوة و الفناجين، قبل وصول ابنتها إلى ذراعي خاله في عناق و عراق أطاح بهما أرضاً.

سأله خاله، و هو يمر بيده على شعره: "وما هي أخبار ابن اختي الحبيب؟" نظر حمد إلى خاله و في عينيه بعض التساؤل: "ألا يذكر؟..". و لكن سعيد ما لبث أن أضاف: "صقاري الحبيب..". و غمرت حمد فرحة عارمة. فها هو خاله لا زال يذكر تسميته هذه له.

سأل حمد خاله: "كيف وجدت الصين يا خالي؟ و هل تمكن طائر الحبارى من اجتياز المسافة كلها إلى بكين؟" أجاب سعيد ضاحكاً: كلا، لم يصل الحبارى إلى بكين، فهي مدينة

المحتويات

مكتظة بعدد هائل من السكان و طائر الحبارى يحبذ المناطق الصحراوية الغير مطروقة. لقد طار فوق إيران و تركمانستان و أوزباكستان إلى الصحراء المنبسطة القاحلة في مقاطعة تشين تشيان .. ما بكما؟ "

ما كاد سعيد يذكر اسم "تشين شيان" حتى اضطر حمد لأن يضع يده على فمه ليكتم ضحكه، أما مريم فتمالكت نفسها بأن عضت على شفيتها بشدة. و لكن ما أن سألهما سعيد عما بهما حتى انفجرا ضاحكين!! و ضحك هو معهما عندما اخبراه بالقصة.

ثم سأله حمد: "و ما الذي كنت تفعله هناك بالتحديد يا خالي؟" وضع سعيد يديه على ركبتيه و انحنى نحوهما بحماسة قائلاً: "كنا نقوم بدراسات مختلفة عن طيور الحبارى: عن سلوكها و غذائها و أماكن وضع البيض و عدد الفراخ التي تقوم بتربيتها. ولكن الذي أمتعني فعلاً هو التقاط طائر الحبارى ثم تزويده بجهاز إرسال يعمل على الطاقة الشمسية و يقوم بنقل المعلومات بواسطة الأقمار الصناعية." سأل حمد: "جهاز إرسال ينقل المعلومات بواسطة الأقمار الصناعية؟"

أجاب سعيد: "نعم، إنه إجراء نقوم به ضمن دراساتنا المتواصلة عن مسار خطوط هجرة طائر الحبارى. سيعينني في الشرح لو بينته لك...." و نظر سعيد إلى أخته و التساؤل في عينيه.

قالت له مريم: "لا مانع عندي يا أخي الحبيب."

نظر سعيد إلى حمد مبتسماً وقال: "أحقاً؟ تعال إذا لأريك أساليب متابعتنا الطيور المهاجرة مستعينين بالحاسوب."

أرشد سعيد حمداً إلى الغرفة المجاورة حيث كان قد جهز الحاسوب و قام بتوصيله إلى خط الهاتف. راقب حمد خاله و هو يضغط بأصابعه على بعض أزرار الطابعة المرتبطة بالجهاز، فظهرت على الشاشة أرقام و نصوص وخرائط، و عندما سأله حمد عما يجري أجاب سعيد بأنه يبعث ببعض الأسئلة إلى المركز الرئيسي، فيرسل المركز إليه الإشارات التي يتلقاها من اجهزة الإرسال المثبتة فوق ظهور طيور الحبارى المهاجرة. و تابع حمد النقاط التي أشار إليها خاله على

المحتويات

الخارطة و التي بيّنت خط هجرة كل طائر.
فهمس سعيد: "هذا هو سبب سفرنا إلى الصين هذا العام." و استمع حمد إلى خاله بشغف وهو يتابع الحديث: "كنا قد التقطنا في العام الماضي- هنا و على أرض الإمارات- طائر حبارى بري، و قمنا بتركيب جهازاً للإرسال على ظهره قبل إطلاقه. أنظر إلى هذا الخط.. كما ترى، لقد قطع طائر الحبارى المسافة كلها من الإمارات إلى مقاطعة تشين تشيان في الصين! ليس هذا فحسب، بل بعد مكوثه لمدة ستة شهور في منطقة تكاثره، تركها ليقطع المسافة مرة أخرى عائداً إلى الإمارات لقضاء فصل الشتاء.. إلى نفس المكان الذي كنا قد التقطنا فيه العام السابق!"

- "يا إلهي!" لقد أعجب حمد بهذا الخبر.
وتابع سعيد: " يظهر لنا هذا الاكتشاف أن الصين هي منطقة تكاثر أعداد لا يستهان بها من طيور الحبارى، و أن دولة الإمارات العربية المتحدة هي أول دولة في العالم.. " و كإن الفخر بادياً في عيني سعيد إذ قال: " أول دولة في العالم تمكنت من تتبع مسار هجرة طائر الحبارى بين منطقة مشتاها و مكان تكاثره!"
و هتف حمد: "حيّاها الله، الإمارات! و لا بد أنها مسافة طويلة قطعها الطائر."

أجابه سعيد: "لا شك أنها مسافة طويلة إذ بلغت ١٢,٣٠٠ (كتابة..) كيلومتراً إلى الصين ذهاباً و إياباً."
ذهل حمد لكل ما سمعه، وسأل: "وكم بلغت سرعة طيرانها؟"
ابتسم سعيد: " أثبتت الحبارى قدرة مذهلة على الاستمرار في الطيران، بالإضافة إلى سرعتها التي يبلغ متوسطها ٣٠ (كتابة...) كيلومتراً في الساعة. يجب أن لا تقارن سرعتها بسرعة جري السيارة يا حمد، بل بسرعة جريك أنت مع إمكانية استمرارك عابراً القارات تحت جميع الظروف الجوية!"

هنا أدرك حمد حقيقة إعجاب خاله بمهارة و سرعة طيران الحبارى، لكن ثمة سؤال آخر يقلقه: "و ما شكل جهاز الإرسال هذا يا خالي؟.."

المحتويات

أطلعته سعيد على صورة توضح الشكل المطلوب الذي كان يشبه علبة صغيرة يخرج منها هوائي رفيع و قال: "إن طائر الحباري يحمل الجهاز على ظهره، تماماً كحقيبة المدرسة التي تحملها أنت على ظهرك."
 أطرق حمد مفكراً و قال: "طائر مسكين!! إن حقيبتني ثقيلة!!".
 ابتسم سعيد و أسند ظهره إلى المقعد قائلاً: "احضر حقيبتك يا حمد لنلقي نظرة عليها."

قام حمد و أحضر الحقيبة المدرسية، و وقف يراقب خاله و هو يفرغها من محتوياتها. ثم ما لبث سعيد أن أعاد دفتريين و علبة الأقلام إليها، و أعطاهما إلى حمد و قال: "هيا، جرب.. احملها الآن.. إنها ليست ثقيلة. فوزن جهاز الإرسال هو ٣٤ (كتابة..)غراماً، و هو ما يقارب وزن بيضة دجاجة صغيرة، وهذا الوزن مقارنة بوزن طائر الحباري، يساوي ما تحمله أنت الآن على ظهرك مقارنة بوزنك."

حرك حمد كتفيه مفكراً: "إن حقيبتني الآن لا تزعجني. كم هو وزنها؟"

أجابته خاله: "وزنها حوالي ٧٠٠ (كتابة..) غرام."
 قال حمد: "ليت حقيبتنا التي نحملها كل يوم إلى المدرسة كانت بهذه الخفة." وراح يقفز و هي على ظهره.

ضحك خاله و قال: "إن الهدف من حملك المعرفة على ظهرك في البداية هو أن تستقر داخل رأسك في النهاية."
 قهقه حمد و قال: "لا تتوقع يا خالي أن يستقر الكثير منها في رأسي هذا!!"

استمع حمد إلى خاله بكثير من الشغف لمعرفة المزيد عن أجهزة الإرسال الصغيرة، وكيف أنها تبث أخباراً عن أماكن وجود الحباري، و درجة حرارة الجو الخارجي في تلك الأماكن، مرسله معلومات عنها إلى أقمار صناعية تبعد مسافة ٩٠٠ (كتابة..) كيلو متراً عن الأرض.

وتابع سعيد: "إن هذه الأقمار تدور حول الأرض بسرعة تجعل رحلتها بين القطبين الشمالي و الجنوبي لا تستغرق أكثر من ١٠٢ (كتابة..) دقيقة، كما تقوم خلال دورانها الدائم بجمع المعلومات التي

المحتويات

تصلها من أجهزة الإرسال المثبتة على طيور الحبارى و تبثها إلى الحاسوب المركزي في باريس و من ثم إلى أجهزة الحاسوب هنا. " قال حمد، وعلى وجهه علائم التعجب: "إذا، و بهذه الطريقة تصلكم المعلومات!"

- "كم أنه ممتع عمل خالي!" قالها حمد في نفسه و هو يقبب صفحات كتاب من كتب خاله، لفتت نظره كلمة في البيئية و رغم أنه لم يفهم تماماً ما تعنيه و لا ما يتفرع عنها من حماية البيئة و حماية البيئة فقد فهم أن هذا هو عمل خاله، فهو حامي للبيئة و رجل أبحاث مختص بالحبارى و الصقور. و تمنى حمد أن يكون مثله عندما يكبر لأن الموضوع يتعلق بالطبيعة.. بالصحراء.. بحيواناتها و طيورها، و حمد يحب هذا كله. كان الكتاب الذي أثار اهتمامه من مطبوعات المركز الوطني لبحوث الطيور حيث يعمل خاله، و كانت تطل من غلافه صورة صقر، و تضم صفحاته معلومات مثيرة عن طيور الحبارى و الصقور، و العديد من الصور. و سرح حمد بأفكاره.. "لا بد أن أبي يعرف هذه الأشياء كلها!!" و شعر فجأة بشوق إلى أبيه: "تري، ما الذي يحمله إلي من رحلته هذه؟ هل هي الهدية التي أحلم بها؟.."



و في تلك الليلة كانت أفكار حمد تدور حول الأقمار الصناعية و أجهزة الحاسوب و الإشارات التي تبثها أجهزة الإرسال الصغيرة من فوق ظهور الحبارى. كان خاله سعيد يطلق على هذه الأشياء جميعها كلمة في تكنولوجيا و تساءل حمد عما إذا كان سيأتي يوم يفهم

فيه هذه في التكنولوجيا فيجيد استعمالها لخدمة العالم مثل خاله. و عندما أدركه النوم، حلم حمد بأنه يطير على متن الحبارى، ينشر ذراعيه ليواكب الطائر الذي صفق بجناحيه في الفضاء الواسع.

المحتويات

خليفة، رجل الأعمال

و في صباح اليوم التالي عاد خليفة. كانت سعادة حمد لا توصف و هو يرى والده و خاله يتعانقان و يتبادلان القبلات مرات عديدة.
ربت خليفة على ظهر سعيد بحرارة و سأله: "و كيف حالك أيها الصديق العزيز؟ كم هو رائع أن نراك بيننا. كيف كانت رحلتك إلى الصين؟.."

أجابه سعيد: "الحمد لله.. كانت تجربة رائعة، و الحياة البرية هناك يعجز عن وصفها اللسان."
فسأله خليفة: "و ما هو مشروعك الآن؟.."

رد سعيد: "لا بد أنك تذكر برنامج سمو رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان لإعادة إطلاق الصقور.. نحن نقيم الآن في الصحراء معسكراً ميدانياً لتدريب الصقور و تأهيلها، و سنطلق بعد ذلك بعض الصقور التي لن تستخدم في الصيد."

ردد حمد قول خاله: "تدريب الصقور قبل إطلاقها!!" كان هذا غريباً و مثيراً جداً للاهتمام.

أضاف سعيد: "نعم، إننا ندرّبها كي تعيش في البراري طليقة معتمدة على نفسها. هذا، و نقوم قبل إطلاقها بتثبيت جهاز بث عبر الأقمار الصناعية على ظهور بعضها كي يزودنا بمعلومات عن خط هجرتها. لقد أطلقنا خلال العام الماضي ٥٩ (كتابة..) صقراً في دولة قيرغيزستان، و تتبعنا اثنين منها بواسطة الأقمار الصناعية فوجدنا أن أحدهما طار إلى الصين و الآخر إلى روسيا!"

أشاح خليفة بوجهه و هو يتمتم: "ممتاز.. ممتاز.." ثم أمسك بيد حمد و سار به إلى المدخل، حيث رأى حمد علبة ضخمة من الكرتون (الورق المقوى)، و سمع أباه يقول: "يا ترى، ماذا لدينا لك هنا، يا رجل الأعمال الصغير؟.."

تفحص حمد العلبة الضخمة.. يبدو أن بداخلها.. نعم.. حاسوباً!!
فصاح: "يا إلهي!! لي أنا؟.. حاسوب خاص بي أنا؟.."
أجابه والده متسائلاً: "ألا تحب أن تكون رجل أعمال مثل أبيك؟.."

المحتويات



ابتسم حمد لأبيه و لم يجبه . و فكّر في نفسه: "أفضل أن أكون رجل أبحاث مثل خالي.."
وأضاف خليفة: "عندما كنا في مثل سنك لم نكن نعرف ما الحاسوب، بينما أصبحت هذه الأجهزة جزءاً هاماً من الحياة العصرية اليوم."

هزّ حمد برأسه مؤيداً، و راح يفتح العلبة ليستخرج منها كنزه الرائع، بينما ابتسم سعيد و قال: "إنني مسرور جداً لأجلك يا حمد..". ثم توجه بكلامه إلى خليفة: "إن أبحاثنا كلها عن الحباري و الصقور قد سجلت في الحاسوب منذ عام 1919 . إنك تعلم دقة المعلومات عن الطيور.. أماكن تعيشها.. مسالك هجرتها.. تفاصيل صحتها.. كل هذه المعلومات يصعب حصرها بغير الحاسوب.. و على كل فإننا سنخرج اليوم إلى الصحراء مع.."
قاطعة خليفة قائلاً: "كفى يا سعيد!!"

على الرغم من أن حمد لم يكن مصغياً تماماً إلى حديث الرجلين، فإن لهجة أبيه الحادة لفتت إنتباهه . و سمعه وهو يقول لخاله: "إنني آسف... و سأكون شاكراً إذا كفت عن ذكر هذا الموضوع أمامي يا سعيد." و رأى حمد أباه يضع يده على صدره برهة مما جعله يتساءل في نفسه: "هل أبي بخير يا ترى؟"
لكن، ما لبث أبوه أن اتجه نحوه مبتسماً و أمسك بكتفيه برفق و

المحتويات

قال: "يا بني.. سنقضي اليوم كله معاً، و في المكان الذي تختاره أنت."

كاد حمد أن يقول على الفور إنه يتمنى لو يذهب الجميع إلى الصحراء مع الخال سعيد، و لكنه استدرك في الوقت المناسب و قال: "هل نستطيع الذهاب إلى حديقة الحيوان يا أبت؟" تردد خليفة قليلاً ثم أجاب: "حديقة الحيوان؟.. حسناً.. إلى حديقة الحيوان." و ارتفع صوت عائشة يردد: "الحيوان.. الحيوان!!" مما جعل الجميع يفرقون في الضحك.

في حديقة الحيوان

لم يتوقع حمد وجود هذا العدد الكبير من الزوار في حديقة الحيوان. و قد بدا له و كأن الناس جميعاً أرادوا الاستمتاع بالجو الربيعي الجميل. نظر حمد إلى والديه و قال بلهجة ملؤها الرجاء: "أمي.. أبي.. تعالوا نذهب إلى قسم الطيور." أجابه أبوه: "ليس الآن.. و لنر أولاً قسم الحيوانات المفترسة.. انظروا هذا هو فهد صياد صغير يختبئ هناك خلف أمه!! هذا النوع يسمونه (شيتا)." أما عائشة التي كانت تعطي كتفي أبيها، فما أن رأت الفهد الصغير حتى راحت تزرق: "نزل.. نزل عواشة!!" و ما كاد أبوها يضعها أرضاً حتى اندفعت راكضة نحو قفص الفهود الصيادة. قال خليفة لحمد: "هذا النوع من الفهود هو أسرع حيوان على وجه الأرض." فأجابه حمد مجادلاً: "و لكن ليس بسرعة الصقير. فصقر الشاهين مثلاً يطير بسرعة ١٠٠ كيلومتر بالساعة، وينقض بسرعة ٣٢٠ كيلو متراً."

المحتويات



بدت على وجه خليفة علائم الدهشة، و سأل ابنه: "كيف عرفت هذا؟.."

أجابه حمد: "من خالي سعيد، فهو الذي أخبرني بذلك." و عاد ليسأل أباه ثانية: "أبت رجاء.. دعنا نذهب إلى أقفاص الطيور." هز خليفة رأسه مستسلماً وقال: "حسناً يا بني.. حسناً."

بقيت مريم مع عائشة التي كانت تراقب الفهد الصغير باهتمام، بينما تقدم حمد أباه وهو يقرأ اللافتات الدالة على أنواع الطيور في أقفاصها، و يلقي نظرات خاطفة على ساكنيها الضجاجين. و فجأة صاح: "أبي!!.." وأشار بإصبعه إلى اللافتة التي كتب عليها (طيور الحبارى) و ركض نحوها.

لحق خليفة بابنه و سألته: "ما الذي يثير اهتمامك بالحبارى يا حمد؟"

أجابه: "لأنني، رغم كل ما أعرفه عنها، لم أر بعد واحداً منها. انظر يا أبي!! هذه هي طيور الحبارى.. انظر.. و ألصق حمد وجهه بالشباك المعدنية التي تحيط برقعة واسعة من الأرض خصصت لهذه الطيور الصامتة، مما جعلها تبدو كقطعة من الصحراء، برمالها و صخورها و نباتاتها المتنوعة.

هز خليفة رأسه موافقاً، و قد لمح عدة طيور هنا و هناك وقال: "حقاً.. إنها طيور رائعة. و من الواضح أنهم يقدمون لها العناية اللازمة، حتى أنهم زرعوا -كما ترى- نبات البرسيم أو الجت، لتأكل منه."

أشار حمد إلى طائر يكاد لا يرى لحسن تمويه ريشه مع محيطه: "انظر يا أبي.. هذه أنثى!!" كان الطائر الرملي اللون قد جثم إلى جانب

المحتويات

شجيرة صغيرة، ثم ما لبث أن نهض وراح يبتعد عنهما و هو يمشي باستحياء على أصابعه الثلاث.

سأله خليفة، و هو لا يكاد يصدق أذنيه: "و كيف عرفت أنها أنثى؟" أجابه حمد: "إن ريش عنق الذكر و صدره أطول بكثير و أشد سواداً من ريش الأنثى، و يظهره للفت انتباهها أثناء فترة التزاوج."

فتح خليفة عينيه بإعجاب بينما تابع حمد: "هذا بالإضافة إلى أن حجمها يدل على أنها أنثى. فإناث الحبارى أصغر من الذكور، طبعاً بعكس الصقور التي يقارب حجم أنثاها ضعفي حجم الذكر."

لم يتمالك خليفة هذه المرة نفسه أن قال: "بارك الله فيك يا بني!!.. والآن أخبرني.. أين تبني أنثى الحبارى عشها؟"

ضحك حمد: "إنها لا تبني عشاً، بل مدحة. فهي تكشف الأرض بقدميها ثم تجلس لتضع بيضها، بيضتين أو ثلاثاً أو أربعاً. و قد تضع ست بيضات، و هذا هو الحد الأقصى عادةً."

تمتم خليفة، مردداً قول حمد، ثم قال: "حقاً.. حقاً.. هذا صحيح." ثم سأله: "من علمك هذا كله؟"

أجاب حمد: "خالي سعيد." ثم استرسل: "أبي، انظر إليها إنها تفضل المشي على الطيران، مما يجعلك تحسب أنها لا تحسنه.. إلى أن ترى براعتها بعينيك!!.. و هي متى أصبحت في الجو... و ي!!" و رفع ذراعيه في الهواء مضيفاً: "عندئذ لا يستطيع الإمساك بها.. إلا الصقر!!" لاحظ حمد أن أباه ينظر إليه و كأنه غارق في التفكير، فسأله بشيء من التردد: "أليس كذلك يا أبي؟"

أجابه خليفة: "ليس دائماً يا بني. إن بإمكان طائر الحبارى أن يناور في أثناء طيرانه السريع..."

قاطعته حمد: "و كذلك الصقور!!"

و استرسل أبوه: "نعم، و بخاصة عندما تكون حسنة التدريب. لكن يبلغ طول الريش الذي يكون جناحي الحبارى و ذيلها ضعفي طول ريش جناحي الصقر و ذيله، مما يمكنها من الارتفاع في الجو بسرعة تفوق سرعة الصقر أحياناً."

انتقلت الدهشة الآن إلى حمد الذي قال: "سبحان الله!!"

المحتويات

تبسم خليفة ثم تتهد بعرق و تابع: "هذا إن كانا معاً في الجو. أما إن كانت المعركة على الأرض، فإنها عندئذ لن تسمح للصقر بمطاردتها و ستطلق عليه صاروخاً أرضياً قبل إقلاعها."

سأله حمد الذي كان يستمتع كثيراً بهذا الحديث مع والده: "صاروخ أرضي؟.. وأي صاروخ؟"

أجابته والده: "تصوب الحبارى على الصقر مادة ثقيلة و لزجة تفرزها تسمى الطمل."

صاح حمد: "صاروخ طمل!! لم أكن أعلم شيئاً عن هذا كله." ابتسم خليفة و قال: "إنك ما زلت صغيراً يا بني. الزمن و الخبرة سيعلمانك الكثير. عندما تصبح في مثل سني ستدرك أنه تصعب معرفة الأشياء حق المعرفة قبل أن تختبرها بنفسك."

أراد حمد العودة إلى موضوع الصواريخ اللزجة فقال: "و بعد؟.. ماذا يحدث بعد ذلك؟"

أجاب والده: "يتعدّر على الصقر اللحاق بالحبارى و قد ألصقت المادة اللزجة ريشه بعضه ببعض، مما يمنعه من الطيران فيبقى على الأرض. و من الضروري إزاله هذه المادة على الفور إن كان يراد للصقر أن يطير بعدها."

قال حمد: "سبحان الله خالق هذه الطبيعة.. كم أتمنى الذهاب إلى الصحراء لأكون جزءاً من الطبيعة."

فأجابته أبوه: "لا داعي للذهاب إلى الصحراء من أجل ذلك. سأصحبك يوماً إلى مركز بحوث الطيور لزيارة خالك سعيد في مقر عمله، و سترى بنفسك كيف تربي و تتكاثر طيور الحبارى في الأسر."

أبدى حمد موافقته و قال: "إن ذلك سيكون ممتعاً. لكن خالي قد خرج إلى البر الآن، و أمامي أيام عطلة.. ألا يمكننا الخروج إلى البر يا أبي؟" لم يجب خليفة على سؤال ابنه، فأعاد هذا المحاولة: "أنت الذي قلت لي منذ لحظات إنه يصعب علي معرفة الأشياء حق المعرفة قبل أن أختبرها بنفسي."

رد خليفة باقتضاب: "سنرى يا حمد.. سنرى. والآن، أين أمك و أختك؟ لنذهب و نبحث عنهما."

المحتويات

أدرك حمد أن لا جدوى من النقاش. فالواضح أن أباه لا يريد له الذهاب إلى البر مع خاله سعيد. و فكر أنه قد يسأله في المستقبل عن سبب نفوره من الطيور مع معرفته بها.

رقص الحبارى

و في البيت عاون حمد أباه في تركيب جهاز الحاسوب الجديد و وصله.

و كان لدى حمد أشياء كثيرة جداً يمكنه القيام بها بواسطة الجهاز. كانت برامجه

و تطبيقاتها رائعة، و به موسوعة كاملة، بصورها و خرائطها. ل ما كان حمد يتمناه صار رهن أصابعه، مما جعله يقضي وقتاً رائعاً مع صديقه الالكتروني الجديد.

كانت عائشة تزعجه عندما تصر على أن "تلعب" هي أيضاً بالحاسوب.

و لكن هذا لم يمنعه من أن يتركها تفعل ذلك أحياناً، فتضرب بحماسة بالغة على الأزرار و تحرك (الموجه) الذي يشبهونه بالفأر، و في أحيان أخرى، لم يكن يجد حلاً لمنعها سوى حملها و إخراجها من الغرفة عنوة و هي تحتج بصراخها العالي. كانت عائشة دائمة المرح، كثيراً ما ضحكت و أضحكته معها، و كانت الحادثة الأكثر إثارة للضحك تلك التي قلّدت فيها رقص الحبارى، بعدما رأت خالها يقوم بها أمامهم.

و قد حدث سعيد ابن أخته مرة عن ذكر الحبارى كيف يرقص حانياً عنقه إلى الخلف لإبراز ريشه الطويل الأبيض و الأسود، في محاولة لجذب انتباه الأنثى.

قال الخال: "و الحقيقة أن هذا الريش الملفت للنظر لشدة بياضه و سواده، لا يظهر و ينتصب متفرعاً كالمروحة إلا عندما يلوي الطائر

المحتويات



عنقه واضعاً رأسه على ظهره. و من ثم، و لمزيد من لفت انتباه الأنثى، يبدأ بالركض هنا و هناك في خط متعرج.. هكذا.. و لشدة انهماكه في الرقص على تلك الحالة، لا يرى ما حوله فنراه يصطدم بأي شيء أمامه."

كان منظر الخال سعيد، وهو يقفز في أرجاء الغرفة مقلداً طائر الحبارى مضحكاً لدرجة لم يتمكن معها حمد و عائشة من السيطرة على ضحكاتهما التي ضج بها البيت كله.

و لم تتس عائشة هذا المشهد إذ فاجأت أخاها مرة و هو يعمل على الحاسوب ، فراحت تقفز بجنون حول الغرفة، مادةً فمها ليشكل منقاراً و هي تصفق بذراعيها كالأجنحة، مرفوعة الرأس مما جعلها تصطدم بقطع الأثاث حولها. أمسك حمد عن الضحك حتى لا يشجعها على الاستمرار، فلما لاحظت ذلك، أضافت حركة أخرى من عندها، فراحت تقلد صياح البط.. آك.. آك.. آك. مسكين حمد، لم يتمالك نفسه، و انفجر ضاحكاً حتى سقط عن كرسیه.

في البدء، لم يلحظ حمد وجود أمه الواقفة قرب الباب. كانت مريم تضحك و ملء عينيها الدموع. لقد رأت كل شيء.. ليت أباه كان معهم ليشاركهم ضحكهم.

الاحتويات

تغير في الرأي

استيقظ حمد في اليوم الثالث من عطلته و هو يشعر بأنه قد استمتع بها حتى الآن. هرع إلى الطابق السفلي علّه يشارك أباه تناول الفطور، ولكنه لم يجد أحداً. لابد و أن عائشة لازالت نائمة في غرفتها، و كان يفكر في إيقاظها عندما تنهى إلى سمعه صوت سيارة توقفت أمام البيت. و ما لبث أن دخل أبواه و على وجهيهما علائم إرهاق شديد.

سأل حمد بلهفة: "ماذا؟ هل حدث مكروه يا أمي؟.."
أجابه خليفة: "لا يا بني، لم يحدث أي مكروه و الحمد لله."
أما مريم التي بدا عليها القلق، فصححت الرد قائلة: "حتى الآن، لم يحدث أي مكروه بعد."

قال لها خليفة معاتباً: "يا مريم.. هوني عليك." ثم نظر إلى حمد و قال: "كل شيء على ما يرام يا بني. كل ما هنالك أنني شعرت بألم خفيف.. وأشار إلى صدره: "فقمنا بزيارة الطبيب. تعال الآن، و لتتناول الفطور."

كان غريباً بالنسبة إلى حمد أن يجد أباه و قد استقر، بعد الفطور، في غرفة الجلوس يقرأ الصحف، بدلاً من الإسراع إلى عمله كالعادة. لكن المفاجأة الحقيقية كانت قبيل الظهر، عندما قدم خاله سعيد. و كان سرور حمد كبيراً لجلوس الأسرة كلها حول مائدة طعام الغذاء.

عبر سعيد عن إعجابه بالطعام مغفماً: "مم.. لقد اشتقت إلى طبخك يا أختي الحبيبة!!"

أجابته مريم: "يسعدني أنه أعجبك رغم كل شيء."

سأل سعيد: "رغم ماذا؟"

فأجابه خليفة: "رغم خلوه من السمن أو الزيت. فقد نصحننا الطبيب بتخفيف الدهون."

كرر سعيد التعبير عن إعجابه بقوله: "إنه لذيذ!!"

قالت مريم لزوجها بالحاح: "خليفة، لم لا تخبره بنصائح الطبيب؟.."

المحتويات

تناول خليفة جرعة ماء قبل أن يجيب: "و قال الطبيب إنني بحاجة إلى إجازة أيضاً."

و رددت مريم: "ليس مجرد إجازة بسيطة. لقد نصحك بتغيير شامل في أسلوب حياتك."

قال خليفة معترفاً: "نعم، هذا صحيح."

ألحت مريم: "و ماذا قال أيضاً؟.."

أجاب خليفة: "إن عليّ مزاولة هواية تخرجني إلى الهواء الطلق." هزت مريم رأسها مؤكدة بينما وضع سعيد المزيد من الطعام في صحنه، ثم نظر إلى خليفة و قال: "خليفة.. ما رأيك بالهواية التي كنت تمارسها في شبابك؟.. لقد كانت تلك أياماً رائعة!!" مالت مريم برأسها يمنةً و يسرةً ببطء و قالت: "آه.. كم أتمنى لو يعود.."

فقاطعها خليفة بحدّة: "مريم!!"

فنظر سعيد إلى صديقه و قال بصوت جاد: "خليفة، إنني أعرف شعورك تماماً. لكنك بحاجة ماسةً إلى الابتعاد عن عملك بين الحين والآخر للاسترخاء و استرجاع النشاط. ألا تعتقد ذلك؟"

هز خليفة رأسه على مضض، بينما تابع سعيد يقول: "إن لجسدك عليك حقاً. تذكر قول الرسول صلى الله عليه و سلم، إن حديثه أفضل نصح لنا جميعاً."

لم يشأ حمد أن يتكلم و اللقمة في فمه، فابتلعها و سأل: "أي حديث؟"

نظرت مريم إلى زوجها مشجعة و قالت: "أخبرنا أنت عن القصة بكاملها يا خليفة."

قال خليفة: "بعث النبي صلى الله عليه و سلم إلى أحد صحابته و هو عثمان بن مظعون، وكان يصوم النهار و يقوم الليل. فلما جاءه سأله الرسول صلى الله عليه و سلم: يا عثمان أرغبت عن سنتي؟ قال: لا والله يا رسول الله و لكن سنتك أطلب. قال: فإني أنام و أصلي، و أصوم و أفطر.. فأتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقاً، و إن لضيفك عليك حقاً، و إن لنفسك عليك حقاً. فصم و أفطر، و صل و نم." و

المحتويات

توقف خليفة عن الكلام مفكراً بالذي قاله.

مسح سعيد فمه و ردد قائلاً: "إن لنفسك عليك حقاً. إن الحفاظ على ما وهبنا الله إياه مسؤولية كل واحد منا، وأية هبة أثنى من الصحة؟"

و أضافت مريم بسرعة: "و من الحب الذي نلقاه من أفراد عائلتنا و أصدقائنا؟"

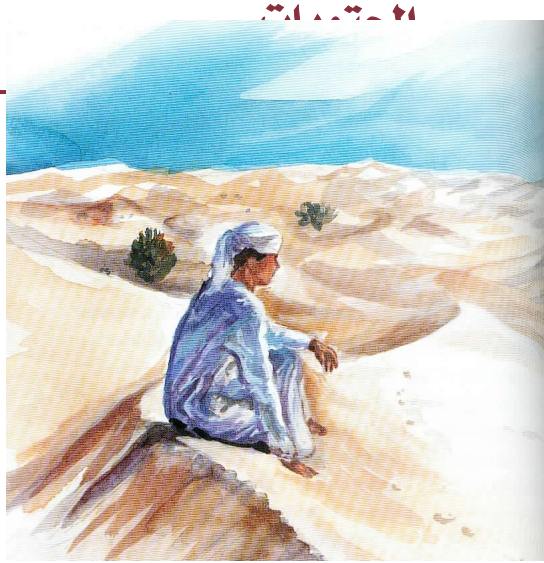
أجاب خليفة و هو يستند بظهره إلى المقعد مغيراً مجرى الحديث: "صحيح.. صحيح. كفانا من هذا يا مريم. ما هي الحلوى التي ستقدمينها لنا الآن؟"

لكن حمد تأكد بعدئذ أن أباه لم يتوقف عن التفكير في الموضوع طيلة النهار، و ذلك عندما ناداه في المساء، و كان جالساً قرب خاله يتحدثان بجد واضح و قال: "تعال إلى هنا يا بني." ثم أمسك بيد سعيد و قال له: "أريدك أن تأخذ هذا الشاب معك غداً إلى الصحراء." قفز قلب حمد من مكانه.. ماذا قال أبوه؟.. شاب؟.. صحراء؟.. و تابع خليفة قائلاً: "و اعلموا أنني لا أريد أن يعود ابني حتى يعرف ما يكفي ليحمله يشعر أنه لا يعرف شيئاً. هل هذا مفهوم؟.."

ابتسم سعيد، و هز رأسه موافقاً: "مفهوم." أما حمد، فكل ما فهمه هو أنه حصل أخيراً على موافقة أبيه للخروج إلى البر برفقة خاله سعيد!

الصحراء

يكاد حمد ألا يصدق ما هو فيه. فهذه سيارة عمه ذات الدفع بالأربع عجلات تتوقف بعد رحلة غير قصيرة. إنها الصحراء أخيراً!! ملاً رثتيه بنسيما لمساء العليل. كان الهدوء يغلف المكان. إنه السكون.. أميال و أميال من الطبيعة البكر التي لم تعبت بها يد الإنسان.



وصلا المخيم مع حلول المغيب، ليشهدا غياب قرص الشمس في الأفق الوردي. بدت الأشجار و الأجمات كخيالات داكنة على خلفية من الرمال المضيئة.. و بعد قليل، بدأت أسنحة الخيام تزاح و قد تحرك ساكنوها الذين كانوا يتهيئون لصلاة المغرب.

بعد تبادل تحيات حارة، مُدَّت البسط فوق بقعة مُهدت و أزيلت الحجارة منها، و انضم حمد إلى صف المصلين محاذياً خاله سعيد. و كلما علا صوت الإمام بالتكبير ردد حمد من صميم قلبه "الله أكبر." كان يشعر بقشعريرة خفيفة لم يدر سببها. أهي برودة الليل، أم انفعاله لوجوده هنا، أم شعوره بالخشوع وهو يقف بين يدي الله على أديم الصحراء العظيمة؟.. رجح حمد أن تكون الأسباب الثلاثة مجتمعة. اصطحب سعيد ابن اخته بعد ذلك في جولة عرفه خلالها بالآخرين. كان عددهم في المخيم يقارب العشرين رجلاً. وقد أدهشه اختلافهم في السن و الثقافة و الموطن الأصلي. فيهم المسنون و الشباب، منهم البدو و سكان المدن الحضر كحمد نفسه، بل كان من بينهم الأوروبيين، و رجل أمريكي، و آخر من إفريقية.

قال سعيد لحمد موضحاً: "إن مجموعتنا عجيبة في تنوعها، تجد من بين زملائي هؤلاء أطباء بيطريين و علماء و صقارين. و الذي يجمع بيننا جميعاً هو الاهتمام بالصقور و حماية الحيوان والبيئة." بدا هذا واضحاً لحمد، و قد رأهم يجلسون جميعاً على الأرض في حلقة كبيرة، يتداولون الإنجازات التي حققوها في عملهم ذلك اليوم.

المحتويات



كانت تلك أول ليلة يقضيها حمد بعيداً عن أسرته، و كان يشعر بالفخر و الوحشة معاً، و لكنه نام نوماً هادئاً .

في الصباح استيقظ الجميع وقت الفجر، و عندما بدأت تباشير الضياء تلوح شيئاً فشيئاً في الأفق تكشّف لحمد أن الصحراء أجمل بكثير مما كان يتصور . راح حمد يمشي متمهلاً، لا يطرق سمعه إلا وطء خطاه ، حتى غاب المخيم عن ناظريه خلف كثيب عظيم من الرمال .

تسلق حمد الكثيب، و استشرف بأنظاره المدي المحيط به، ثم جلس و راح يتخيل أنه وحيد في هذه الصحراء . أحس و كأنه على سفينة صغيرة في خضم بحر من الرمال . لفتت انتباهه شجيرة صغيرة بدت كأنها من نوع (الحاذ). فسار نحوها، و فعلاً كانت الشجيرة من نوع (الحاذ) الذي حدثته أمه عنه فها هي أزهارها البيضاء الصغيرة المسماة بالسفير، و عندما اقترب منها فوجئ بأرنب بري صغير بني اللون يميل إلى الرمادية يقفز من خلفها كالبرق على رجلين خلفيتين طويلتين و يختفي بين أغصان نبتة أخرى تبعد عنه قليلاً . وسر حمد لأن الحظ حالفه، فهذه أول مرة يلمح فيها أرنباً برياً .

اتجه حمد عائداً نحو المخيم، و هو يستمتع بنسيم الصباح العليل . لقد أضحى بإمكانه رؤية ما حوله الآن بوضوح، فهذه شجرة (ثمام) تتم عنها تلك الرغبة التي تتوجها . و تلك نبتة في الأوطان المتميزة بأعوادها الخضراء و ثمرتها الحمراء . ثم توقف لحظة يراقب سحلية (عظاية) تخرج من جحرها لتستمتع بدفء الشمس .

أخذ حمد يسير الهوينا ، مستمتعاً بما تقع عليه عيناه و تلتقطه أذناه في هذا الجو الساحر الجديد . ما أجمل تداخل الأصوات .. أصوات عصافير متقطعة . الأحاديث الودية بين الأصدقاء في المخيم .. أهازيج بدوية .. و إيقاع دقات غريبة .. رات تات تات .. رات تات تات!

المحتويات

يوم من الاكتشافات

كان هذا اليوم يوم استكشاف و تعلم، وبدا لحمد أن كل ما كان يفعله طوال نهاره هو طرح الأسئلة.. الكثير من الأسئلة.
أشار حمد إلى الخيمة التي ينطلق منها صوت الإيقاع الغريب و سأل خاله: "ما هذا الصوت يا خالي؟"
أجابه سعيد: "دعنا نرى."

و بمجرد أن دخلا الخيمة عرف حمد مصدر الإيقاع.. إنها القهوة تدق بالرشاد!! و ابتسم الخال سعيد للرجل المسن الذي كان يدق القهوة في المنحاز و قال: "الله!! ليس هناك ما هو أكثر إنعاشاً من رائحة القهوة المقلية" في الصباح، أليس كذلك يا غانم؟"

غير غانم إيقاع ضرباته إلى: تيكى تاك.. تيكى تاك، و قال: "انتظر حتى أضيف إليها المسمار و حب الهال."

سأله أحد شباب البدو: "أتظن أن الذي لمحته هو أرنب بري؟"
هز حمد برأسه إيجاباً و قال: "لا بد أنه كان أرنباً صغيراً."
أجاب الشاب: "إنه حظ كبير أن ترى واحداً من هذه المخلوقات الخجولة التي أصبحت نادرة منذ بضعة عقود مما دعا الشيخ زايد لإصدار قانون يحميها."

نظر سعيد إلى الشاب البدوي و قال: "جابر، هلا أخبرتنا كيف أصبحت هذه الأرانب نادرة الوجود مما دعا إلى حمايتها؟"
أجاب جابر، و هو يهز رأسه أسفاً: "لقد اصطيد أغلبها بالبندقية حتى كادت أن تنقرض في بعض المناطق، و لكن يبدو لنا الآن و بفضل هذا القانون أن أعدادها بدأت تتكاثر تدريجياً."

كان حمد غارقاً في أفكاره خلال مشاركته الآخرين فطورهم البدوي، الذي بدا له أشبه بالحلويات. كان غانم قد جلب لهم تمرأ و قدراً من (الكامي) وهو لبن حامض متجمد بعد الطبخ، في وسطه بحرة من السمن البلدي السائح. وراح حمد يأكل كالأخرين ممسكاً بنصف التمرة يرصها بين أصابعه ثم يلتقط بها الكامي وكأنها ملعقة. لذيذ

الاحتويات



هذا الطعام!! و شعر حمد بالسعادة تسري في كيانه، و راح يفكر: أخيراً.. ها أنا ذا أعيش حياه البداوة. يا عفرأء و يا مطر.. ها أنا قادم إليكما!!

انضمّ إلى مجموعة الجالسين رجل طويل أوروبي المظهر فترجّ على الأرض بساقيه الطويلتين، و تبين لحمد أنه يعمل طبيباً بيطرياً و أن مهمته هي التأكد من حسن صحة الصقور قبل إطلاقها. و كان غانم يدور بالقهوة و عندما وصل إلى الرجل قال له: "إن شئت قدّمنا لك الشاي."

نظر الرجل إلى غانم و سأله ضاحكاً: "إن شربتها أنت معي يا غانم!"

أجاب غانم: "لا. أنت تعلم جيداً أن البدو يشربون القهوة."

ابتسم الرجل و قال لغانم: "أنا بدوي إذن!!"

و تعجب حمد. فهذا الرجل ذو الشعر الأشقر، الذي يتكلم بلهجة لا يكاد يفهمها يقول إنه بدوي!! و رأى حمد الابتسامة في عيني غانم، و هو يرفع يده بالدلة إلى الأعلى ليصب القهوة في فنجان الرجل على شكل خيط رفيع طويل. فقال حمد في نفسه: "إننا جميعاً من البدو اليوم." تناول حمد لقمةً أخرى من التمر و الكامي، و إذ بالرجل الأوربي يفعل ذات الشيء فالتقت عيناها.

ابتسم الرجل لحمد و قال: "إن لي ابناً في مثل سنّك." ثم مدّ يده بالتمر إلى الكامي و أضاف: "إنني أدربه ليكون صقاراً، و بودي أن أحضره معي إلى هنا في أحد الأيام، فهو سيتعلم الكثير لو أتى." سأل حمد: "و ما اسمه؟"

المحتويات

أجابه الرجل: "اسمه يوسف."
تذكر حمد أن الأجانب يلفظون الاسم بشكل آخر فقال: "تعني جوزيف."
فأجاب الرجل على الفور: "لا.. لا.. بل يوسف، إنني أحب الأسماء العربية فأسميته يوسف."
رد حمد قائلاً: "إذاً.. سأناديك أبا يوسف." و ضحك الجميع.

الصقراشقر

أمسك حمد أنفاسه عندما رأى الرجال يخرجون الصقور الرائعة من خيمتها الكبيرة. كان كل منها مبرقعاً ببرايق مصنوعة من الجلد الناعم تغطي الرأس و العينين تاركة فتحة للمنقار. و كانت الصقور مربوطة بأرجلها بخيط يسمى بـ السبقع إلى مجاثم خشبية لتمنع من الطيران حتى يحين موعد إطلاقها.
و سأل حمد أحد الصقارين مشيراً إلى المجثم الخشبي: "ماذا تسمون هذا؟"

أجابه الصقار: "إنه (الوكر)."

- "و هذا؟" و أشار حمد إلى الحبل.

- "إنه (المرسل)."

وتعلم حمد بقية الأسماء، فخييط السبق مشدود إلى المرسل من جهة و مربوط بتبلاغة الوكر من الجهة الثانية.

أنحنى حمد برفق و هو يلامس الجزء العلوي المبطّن من الوكر، ثم مرر إصبعه على حافته، متحاشياً مخالب الصقر الحادة. و همس بإعجاب: "سادة الجو.. تقف على عروشها!!"

و هذا ما برهنه لحمد يومه الأخير في الصحراء ، حيث كانت الصقور سادة الجو فعلاً.



الاحتويات



بعد ظهر ذلك اليوم، رافق حمد كلاً من سعيد و أبي يوسف فزاروا الصقور في خيمتها. و قد لفت انتباهه صقر كأن ريشه من الذهب، نبه خاله إليه فقال له سعيد: "حقاً.. إن لك عيناً مميزة يا بني. فهذا الصقر الأشقر الذي يعد في رأي الكثيرين من أقوى الصقور و أشجعها." و لاحظ حمد أن خاله سكت فجأة، و سرح ببصره بعيداً و كأنه يرى شيئاً في الأفق.

سأله حمد: "ما الأمر يا خالي؟"

أجابته: "لا شيء يا بني. إن هذا الطير يذكرني بصقر يشبهه مات في ظرف محزن منذ زمن بعيد."

و سأله أبو يوسف: "هل تريد أن تتعرفه؟"

فأجاب حمد مقترباً: "نعم، بالتأكيد. ما اسمه؟"

قال أبو يوسف: "مشهور."

رد حمد متعجباً: "مشهور؟!.. أليست أنثى؟.. ألم يكن من الأنسب

أن تسمى مشهورة؟.."

ضحك سعيد و قال: "مشهور هو اسم تقليدي يا حمد. فالعرب

القدامى لم يشهدوا الصقور و هي تعشش و تفرخ، فكانوا يحسبون الأكبر حجماً منها ذكوراً. و لهذا أطلقوا عليها أسماء مذكرة."

أجاب حمد: "فهمت، و لكن هذا من تقاليد الماضي. أليس بإمكان

الناس الآن، و بكل بساطة، إعطاؤها أسماء مؤنثة؟"

رفع أبو يوسف حاجبيه و ردد ما قاله حمد: "من تقاليد الماضي؟ إن

التقاليد هي علم قائم بذاته يا صديقي، و هي التي تفسر لك تصرفات الناس و طرق معيشتهم و تفكيرهم. التقاليد تتبوء الكثير عنهم."

تجهم وجه حمد، فقد شعر أن هناك أشياء كثيرة لا يفهمها.

سأله أبو يوسف مبتسماً: "ما الأمر يا حمد؟.. أعطيك درهماً لو

أخبرتني بما يجول في خاطرك."

هز حمد كتفيه يائساً و قال: "أحاول أن أفهم معنى التقاليد، فأنا لا

المحتويات

أعرف ما تعنيه تماماً."

جلس أبو يوسف أرضاً وسط الخيمة وقال: "تعاليا." ولما انضم إليه سعيد و حمد تابع يقول: "إن التقاليد، كما قلت لك أيها الشاب، هي علم، و بإمكاننا دراستها و تعلمها كما ندرس و نتعلم أي علم آخر. إن بلادك عامرة بالتقاليد التي مازال ثراؤها يدهشني كل يوم." فقال حمد: "هذا بالضبط ما أعنيه."

و تابع أبو يوسف بحماسة: "هل تعلم يا حمد أن الصقارين العرب هم الوحيدون في العالم الذين يستطيعون استرجاع صقورهم المحلقة في الجو بندائها بأسمائها؟ كما أنهم يروضون الصقر في مدة زمنية أقل من غيرهم بكثير؟"

- "أحقاً؟" لقد دهش حمد بما سمع.

تبسم سعيد و قال: "إن بإمكاننا تربية الصقر البري في أقل من شهر، وبعدها يصبح "راباً" أو "ربيب".

سأله حمد: "و هل للوقت كل هذه الأهمية في التربيب يا خال؟" فأجابه سعيد: "بالطبع، فالوقت هو كل شيء لأن الحباري والصقور تصل بلادنا في الوقت نفسه تقريباً من كل عام، و ذلك خلال هجرتها من أواسط آسيا و الصين و منغوليا، و لما كانت لا تقضي إلا شهور الشتاء هنا، وجد الصقارون أنفسهم مضطرين إلى تربيب الصقور بأقصر فترة زمنية ممكنة، و من ثم تدريبها على صيد الحباري، بالإضافة إلى طيور وحيوانات أخرى كالكروان و الأرانب، مستفيدين بذلك من الموسم."

سأله حمد: "أليس بإمكانهم الاستفادة من الصقور التي كانوا أمسكوا بها و دربوها في الموسم السابق؟"

أجاب سعيد: "في الماضي لم يكن ذلك ممكناً، لأنهم كانوا يطلقون الصقور في نهاية موسم الصيد."

صاح حمد، و على وجهه علامة استفهام كبيرة: "يطلقون سراحها بعد كل هذا التعب و الجهد المضمني؟"

ضحك أبو يوسف و قال: "كانوا يفعلون ذلك لمصلحة الطيور." و أكمل سعيد حديثه قائلاً: "إن الصقور مخلوقات حساسة، تحتاج في معيشتها - و خاصة في موسم التفريخ- إلى طقس بارد و طعام

المحتويات

خاص، و هذا كله غير متوافر هنا في أشهر الصيف القائظة حين يكون البعض منشغلاً بصيد اللؤلؤ مصدر معاشهم. أما اليوم، فكل شيء قد اختلف. و أصبح بإمكاننا الاحتفاظ بالعدد الأكبر من الطيور حتى الموسم القادم، لوجود مكيفات الهواء و الدواء و العناية اللازمة."

أيد أبو يوسف أقوال سعيد، و أضاف: " و من تلك التقاليد أيضاً أن الصقارين العرب كانوا دائماً من حماة البيئة فما كانوا ليصطادوا أكثر من حاجتهم. و من أقوالهم المأثورة: إن الصياد الماهر ليس من يصطاد الأكثر، بل من يترك الكثير للغد القادم."

سأل حمد: "هل هذا ما تعنيه حماية البيئة؟.. أن نترك شيئاً للغد

القادم؟"

أجابه أبو يوسف و هو ينظر بإعجاب إلى الفتى العربي: "نعم، إلى حد ما. إن حماية البيئة تعني أن نستخدم الموارد الطبيعية بشكل مدروس بما يدعم استمرارية بقائها و تكاثرها."

في تلك الليلة، حلم حمد بأنه كان يحمل على يده صقراً جميلاً، لكنه أفلت منه فجأة إذ لم يكن قد ربط بشكل جيد، فركض حمد وراءه محاولاً الإمساك به، ولما هم بمناداته تبين أنه قد نسي اسمه!... عندئذ صحا حمد مرعوباً من حلمه.

عفراء ومطر

في صباح اليوم التالي، سرَّ حمد لرؤية خاله و جابر يُخرجان الصقور من خيمتها، و عرف من بينها مشهور. قال في نفسه: "أنت مشهورة!" ثم سأل خاله ملحاً، و هو لا يزال يحاول فهم المبرر لإطلاق الاسم المذكور على الأنثى: "خالي.. ألا تعتقد أن الصقارين القدامى كانوا يظنون أن البنات - أعني إناث الصقور- غير قادرات على الصيد مثل الذكور؟"

ضحك سعيد و قال: "لا بالله!! إنني أعرف بنتاً، كانت تصطاد مع

المحتويات



صقرها أفضل من كثير من الذكور.

فسأله حمد: "و من هي يا خالي؟" فابتسم سعيد ابتسامة غريبة،
مما جعل حمد يلح عليه: "بالله عليك يا خالي.. أخبرني من هي؟" ثم
التفت إلى جابر: "أتعرف من هي يا جابر؟"
ضحك جابر: "لا والله. و لكنني متأكد من أنك ستعرفها من
خالك."

عاد حمد و ألح على خاله: "خالي، أرجوك، أخبرني من تكون
تلك البنت."

لم يجد سعيد أمام إلحاح ابن اخته بداً من أن يجيبه: "كل ما
يمكنني قوله هو أن اسمها عفراء."
ردد حمد بحماسة: "عفراء!! إنني أعرفها. أليست هي أخت
مطر؟"

و هنا انتقلت الدهشة إلى سعيد الذي أجاب: "نعم، هي أخت مطر،
و لكن كيف عرفت ذلك؟"

جاء دور حمد ليبتسم ابتسامة غريبة و هو يفكر في نفسه: "كيف
عرفت من هما عفراء و مطر؟ لقد قضيت طفولتي كلها بصحبتهم!"
أعاد سعيد السؤال مضيفاً: "هل هي أمك التي أخبرتك؟"
هزَّ حمد رأسه بالإيجاب، فأغرق سعيد بالضحك و هو يقول: "كان
عليّ أن أعرف أنها لن تتمكن من حفظ السر، و عندها ابن فضولي
مثلك."

المحتويات

فسأله حمد: "سرّ؟.. وأي سرّ هذا يا خالي؟" و عاد الموضوع ليبدو غامضاً لحمد.

و تتهدّ سعيد: "آه.. إذا أنت لا تعرف."
سأله حمد ملحاً: "لا أعرف ماذا؟.. ما هو السرّ يا خالي؟"
أجاب: "دعني يا ولد!! لا تورطني في إعطائك الكثير من المعلومات."

ردّ حمد على الفور: "و لكن أليس هذا سبب و جودي هنا؟.. ألم يبعث بي والدي كي أتعلم؟"

أمعن سعيد النظر في عيني حمد المتعطشتين للمعرفة، و بعد لحظات من التفكير قال له: "حسن، سأقول لك شيئاً واحداً فقط. كان لأمك و لي اسمان سرّيان نتنادى بهما عندما كنا صغيرين. كنا نطلق على أنفسنا اسمي عفراء و مطر. هذا كل ما استطيع قوله."
شّل لسان حمد لهذا الخبر المفاجئ. ماذا؟!

و مضت بقية اليوم كالحلم... و رغم أن حمد شارك الآخرين في أعمالهم، فإنه لم يكن مهتماً بما يدور حوله، لأن أفكاره كانت في مكان آخر.

و في الليل، و قد أخذ الجميع إلى النوم، بقيت عينا حمد مفتوحتين، و ظل ذهنه يemor بالسر الذي اكتشفه. إذا عفراء هي أمه!!.. و راح يسترجع في ذاكرته قصص أمه.. واحدة بعد الأخرى. نعم، هذا ممكن.. من الواضح أن تلك القصص كانت عن أمه، عندما كانت هي و خاله سعيد صغيرين. و لكن لماذا لم تخبره بأنها قصص طفولتها هي؟ لماذا جعلته يعتقد أنها تتكلم عن فتاه أخرى؟..

ثم غلبه النعاس فنام و هو يحلم بالصحراء، حيث يعيش طفلان بدويان. و لكن حلمه الآن كان مكتملاً. فالصحراء أضحت حقيقة.. و كذلك أضحي كل من عفراء و مطر.

الصقور، الجباري، والإنسان

وقف حمد بلا حراك، وقد ألصق ذراعه الأيسر بجنيبه، و مدّ ساعده إلى الأمام. كان يرتدي كماً مصنوعاً من الجلد و القماش مفتوحاً من طرفيه يسمونه (المنقلة). و بعناية كبيرة، وضع غانم صقراً فوق المنقلة على ساعد حمد الممدود، و أدخل سبوق الطير بأصابعه و شد عليها ممسكاً بها فشعر حمد بثقل الطير، و راح قلبه يخفق بسرعة من رهبة الحدث و ربما أيضاً لتذكره الحلم. تجرأ حمد بعد قليل و بدأ يمرر أصابع يده اليمنى برفق على ريش الطائر الجميل. سيخبر أصدقاءه و أولاد عمه بهذا



كله. إنه لشعور رائع!! رائع!!

و سأل: "ما اسمه؟"

أجاب غانم: "براق".

ثم سأله: "و متى يذهب براق إلى الصيد يا عم غانم؟"

لم يجبه غانم، بل رفع الصقر عن ساعد حمد، و راح ينسره من قطعة لحم أمسك بها بين أصابعه و يدعو به باسمه.

عاد حمد و سأله: "أليس بإمكاننا أخذ براق إلى الصيد الآن؟"

أجابه غانم: "لا، ليس بإمكاننا ذلك يا حمد. فنحن نخرج الصقور

إلى الصيد عادة إما في الصباح الباكر أو بعد الظهر."

- "و لكنني سأرحل عنكم قريباً، و قد لا تتاح لي فرصة رؤية براق و

هو يصطاد أبداً!! ما رأيك بفترة صيد قصيرة الآن؟"

و بصراحة البدو أجابه غانم: "قلة الصبر لن تجعل منك صياداً

أبداً، و التهور يقود دوماً إلى الندم. ألا تعرف القول المأثور (في التاني

السلامة و في العجلة الندامة)؟ إنك قد تفقد صقرك إلى الأبد."

- "حتى لو كنت حذراً؟"

المحتويات

- "هذا ما يقوله الناس دائماً، لكن الأمور لا تجري كما يتصورون. فالصقر ليس آلة يمكنك تحريكها لتعمل بإتقان. إن للصقر مشاعر و حالات نفسية، فهو يحب و يكره، تماماً مثلنا نحن البشر. و إن لم تكن أنت فطناً و صقرك جيد التدريب، ستجده يرفض أوامرک و يفعل ما يحلو له، حتى إنه قد يتركك في النهاية و يطير راحلاً عنك إلى الأبد."

لم يستطع حمد إخفاء علائم الشعور بالخيبة التي بدت واضحة على وجهه، مما جعل غانم يقول مواسياً: "اسمع يا بني. سنكون هنا مرة أخرى في العام القادم، و يمكنك الانضمام إلينا فور بدء عطلتك المدرسية. ثم أن موسم الصيد لهذا العام لم ينته بعد و بإمكانك الخروج للقنص مع أبيك في عطل نهاية الأسبوع."

تمتم حمد بغضب: "أبي؟.. إنه لا يصطاد أبداً!!" فأجابه غانم: "على كل، أمامك الكثير لتتعلمه قبل أن تصبح صقاراً!"

و سكت فجأة و اتجه إلى ركن معتم من الخيمة، وجاء بشيء، ثم جلس على الأرض قرب المدخل الذي غشيته أشعة الشمس.

شعر حمد بعدم الرضى عن نفسه، فقد كان يعتقد أنه واسع المعلومات، فاتضح له الآن أن ما يعرفه قليل جداً، بل إن تعامل غانم معه يشعره بجهله و بأنه لا يعلم شيئاً على الإطلاق. و هنا قفزت إلى ذاكرته كلمات قالها أبوه لخاله سعيد: "لا أريد أن يعود ابني حتى يعرف ما يكفي ليحمله يشعر أنه لا يعرف شيئاً!" ألهذا أرسله والده إلى هنا؟ ألكي يشعر أنه لا يعرف شيئاً؟

كان حمد غارقاً في أفكاره هذه، إلى حد جعله يكاد يقفز حينما سمع صوت غانم الذي بدأ ينشد:

محلا مشتى البر و الناس نزالتسمع غنا المنحاز يسجع صداهابيت الشعر دايف و ضايف و
ظلاللتقى بيوت الشعر يحلا بناهاوم البن لجم للعرب جملة دلالو على خشيف الريم أول إبداهازيد القناد
و صب عالكيف فنيالبأيدين لي ما حف منها نداهاعاداتنا من سنين شبان و رجالنكرم غريب الدار لي من
لناها ❖

المحتويات

و كبدوي أصيل ردد حمد الكلمات الأخيرة تعبيراً عن اعجابه: "لي من لفاها!!" كان الشعر جميلاً، رق له قلب حمد، ربما للأسلوب الذي تغنى به غانم، حناناً و اعتزازاً، أو لمنظر الرجل المسن و هو يعمل يديه أثناء الغناء.

ما هذا الذي كان غانم يشتغل به؟ يبدو أنه كان يصنع مراسلاً للصقور. تساءل حمد في نفسه: "أهذه إذاً طريقة صنع المراسل؟ أكان لعفراء و مطر جد مثل غانم؟ كم أنا محظوظ لقضاء الوقت مع شخص كهذا.. و كم كنت ساذجاً عندما ازعجتني طريقة تعامله معي."

اقترب حمد من غانم، و هو يفكر بكل الأشياء الرائعة التي يمكن أن يكون عفراء و مطر قد تعلمهاها من جدهما. و قال لغانم: "جدي!! أعني عم غانم، ما علاقة الصقارين العرب بالصقور و الحبارى؟" لقد قرر حمد أن يعاود طرح الأسئلة، لأنها طريقة جيدة للحصول على المعلومات.

لم يجب غانم على سؤال حمد فوراً، و كاد يعيد سؤاله عندما أجاب: "تعود هذه العلاقة يا حمد إلى الأجيال السابقة، عندما كانت الحياة أقرب ما تكون إلى الطبيعة. كان لآبائنا ارتباط شديد - بل لنسميه حب شديد و ولع - بالصحراء و بكل ما فيها، و بالمهارات التي تتناسب و حياتهم الصحراوية و من أهمها القنص. فالقنص منذ بدايته رياضة نبيلة، و قد وجب لكي يكلل بالنجاح أن يتوافق الصقار مع صقره، بحيث يحترم الأول مشاعر الثاني، فلا يعنفه أو يسيء معاملته، و يعرف تماماً أفضل أوقات الإطعام و أنواعه و مقداره، بحسب حالة الصقر. إن للطعام علاقة مباشرة بقدرة الصقر على الطيران و رغبته في إمساك الطريدة."

- "ما الذي يحدث لو عنف الصقار صقره أو جهل حاله فلم يطعمه كما يجب؟"

- "يترك الصقر صقاره في أول فرصة، و يطير عنه من غير رجعة." هز حمد رأسه مفكراً. لم يكن يعرف أن العلاقة بين الاثنين حساسة إلى هذا الحد.

الاحتويات

و تابع غانم: "أما الصقر الجيد التدريب، فيطيع أوامر صقاره دائماً، حتي عندما يكون مبرقعاً فإنه يتعرف صقاره من صوته." علق حمد على ما قاله غانم قائلاً: "إذا، فالفائدة من حسن التدريب تعود على كلا الطرفين!!"

أجاب غانم: "تماماً، بل أكثر من ذلك، فإن عملية تدريب الصقر - بكل صعوباتها- تُعلم الشباب مناقب كثيرة، منها: احترام الطبيعة و الحفاظ على توازنها، و القدرة على اتخاذ القرار، و الصبر و التآني، و الجلد و المثابرة، و حب المشاركة، و كذلك حسن التعامل مع الآخرين. و لهذا فعندما توقفت حاجة الناس للصيد، استمر الآباء في تعليم أبنائهم فن القنص كي يكتسبوا هذه الصفات النبيلة."

سأل حمد: "والحباري؟.. ما علاقة الحباري بهذا كله؟" ضحك غانم ضحكة لم يفهم حمد سببها، إلى أن قال: "إن مطاردة الصقر للحباري أكبر دليل على حسن التدريب الذي تكلمنا عنه، و على حسن العلاقة بين الصقار و صقره. فالصقر بطبيعته لا يصطاد الحباري، و لم تكن هذه في يوم من الأيام من طرائده!!" صاح حمد مشدوهاً: "تعني أن الصقر غير المدرب لا يفكر باصطياد الحباري؟؟"

أجاب غانم: "أبداً. إنه يفضل بعض القوارض التي تعيش في الصحراء و الطيور الأصغر حجماً و الأقل براعة في الطيران كالحمام مثلاً."

تنهد حمد و قال: "سبحان الله.. لم أكن أعرف ذلك. إذاً فرغبة الصقار في الحباري و توافر أعدادها الكبيرة سابقاً هي التي جعلت منها طريدة."

سكت غانم و عاود عمله اليدوي في حين سرَّ حمد كثيراً لما دار بينهما من حديث. ثم، ولشعوره بأن البدوي المسن يأخذه الآن على محمل الجد، تشجع حمد

و عاود الكلام معه: "أخبرني خالي سعيد أن علماء مركز بحوث الطيور يقومون بمحاولات جادة لتشجيع الحباري على البقاء في الإمارات العربية المتحدة، و ليس مجرد المرور بها أثناء هجرتها."

المحتويات

قال غانم: "صحيح إننا نعمل على تحسين البيئة الطبيعية حيث الحبارى البرية، و نقوم بعزل هذه المناطق و حمايتها بتحديد عمليتي الصيد و التدخل البشري."

جاء حمد: "كنت أظن أن الصيد هو أسوأ أنواع التدخل البشري." رد غانم: "لا . ليس الصيد كذلك، أو بالأحرى لم يكن كذلك في الماضي. إن جيلنا يا بني هو جيل الصقارين الأصليين الذين حدثتكم عنهم، بينما بعض من يسمون أنفسهم صقارين في يومنا هذا، لا يهمهم سوى السعي وراء متعة آنية، مهما كان الثمن."

في هذه اللحظة دخل الخيمة جابر وعلى وجهه ابتسامة عريضة و قال: "السلام عليكم" ثم أشار إلى الخيوط التي بين يدي غانم يصنع منها مراسلاً للصقور و أضاف: "هلا تعاوننا في العمل يا عم غانم؟" جابه غانم: "بارك الله فيك يا جابر، العمل متعة. تعال اجلس بجانبني."

جلس جابر و قال: "أرجو ألا أكون قد قطعت عليكما الحديث." قال غانم: "لا أبداً. كنا بصدد الكلام عن الحياة في البرية و التدخل البشري."

أجابه جابر: "فهمت. إنني أعرف تماماً ما تعنيه. فقد رأيت بأمر عيني ما يفعله التدخل البشري بالحياة البرية. ما عليك يا حمد إلا أن تنظر إلى الصحراء حولنا. فكل بكل النباتات و المخلوقات التي تعيش فيها، ثم تخيل مجموعات من الأبنية تتوضع في كل مكان بدل الأشجار. و تخيل أيضاً شوارع الإسفلت الأسود تتلوى هنا

و هناك بدل الطرقات الصحراوية الترابية، ثم أضف إلى هذا كله جسوراً تختفي تحتها التلال و الكثبان الرملية الجميلة. ماذا سيكون مصير الحياة البرية؟" و ضرب كفاً بكف: "تكون قد انتهت!! لن يبقى منها شيء، حتى و لو منعت الصيد.. لأن الألوان يكون قد فات. هذا هو التدخل البشري بالضبط."

كان واضحاً لحمد أهمية الموضوع لدى رفيقيه البدويين، و أحسَّ بالألم الذي كانا يشعران به تجاه التدخل البشري. لذا رأى من الأفضل

المحتويات

تغيير الموضوع، فسألتهما: "لماذا يرتدي أبو يوسف قفازاً جليداً طويلاً لحمل الصقور بدل المنقلة، كما تفعلون أنتم؟"
ضحك جابر و قال: "لأنه ليس من بلادنا." فابتسم حمد دون أن يفهم ما عناه جابر.

فأوضح غانم: "إن لكل بلد تقاليده الخاصة يا بني. فصقارو البلاد التي جاء منها أبو يوسف يستخدمون القفازات الطويلة هذه. و قد فعلوا ذلك منذ مئات السنين، بينما استخدمنا نحن المنقلة."

أطرق حمد. ها هي ذي كلمة (التقاليد) تقفز أمامه مجدداً، فسأل: "و ما هي التقاليد؟.. وهل التقاليد كلها جيدة؟"
بدت على وجه غانم علامات الدهشة و قال: "إن سؤالك لغريب حقاً يا بني."

و وضع جابر يده على ذراع البدوي المسنّ و قال: "ليس بهذه الغرابة يا عمّاه. إن جيلنا أيضاً كثيراً ما يسأل السؤال ذاته، و بودنا أن نعلم رأيك أنت."

عض غانم على شفته مفكراً، بينما تطلع إليه جابر و حمد ينتظران الإجابة.

و بعد برهة قال: "التقاليد هي مجموعة الطرق التي استقرت عليها تجارب الأجداد في التعامل مع بيئتهم، و فيها حصيلة خبرتهم في الحياة."
فأعاد حمد سؤاله: "وهل التقاليد كلها جيدة؟"

قال غانم: "القدر الأعظم منها جيد لأصحابها، لكن من غير الممكن طبعاً أن نطلق القول بأن كل التقاليد جيدة لكل إنسان و في كل ظرف."
ابتسم جابر و هو يقول: "كنت أعلم أنك ستقول ذلك. فالخبرة، ثم العلم و المعرفة هي التي تحدد جيد التقاليد من سيئها."

أيد غانم كلام جابر و أضاف: "هذا صحيح. فالخبرة و العلم و المعرفة كثيراً ما تؤكد أهمية بعض التقاليد و تزيد من تمسك الناس بها."
و خطر في ذهن حمد ما جعله يصرخ قائلاً: "الآن! الآن فهمت. لهذا يهتم الكبار بالتقاليد دون الأولاد! إن الناس يزدادون تمسكاً بالتقاليد كلما تقدمت بهم السن و ذلك لازدياد الخبرة و العلم و المعرفة لديهم، رغم أنهم كانوا في صغرهم مثلي، لا يفهمونها أبداً!"

المحتويات

انفجر جابر ضاحكاً لقول حمد، و حتى غانم ابتسم ابتسامة عريضة أقرب ما تكون إلى الضحك. شعر حمد بسعادة بالغة. لقد أحسن اليوم صنعاً، فقد طرح أسئلة مناسبة و تعلم الكثير من هذين البدويين الحكيمين، و كاد أن يضحك العم غانم.

حول نار المخيم

و لي أقبل الماسي جمعنا بخلانخيمة شعر نار و حكاوي طرايفمع حمسة القهوة بها الهيل يزدانو تزيل صوعك لو ورا البيت طايفحتى القمر من ريجه البن نشوانيرسل ضياً بين الغيوم الشفايفقرب و سلم و احتجب وين ما كانخلف الردوم السود ماهو بخايفو اشتاق قلبه و ارتجف كأنه انسانوده يشاركهم حديث و سواف❖❖❖

في تلك الليلة، نظر حمد إلى الوجوه المضيئة المتحلقة حول نار المخيم، و أدرك أنه لن ينسى عطلته هذه مدى الحياة. لم يكن دفاء النار الممتع هو وحده الذي جعل هذه الأمسية رائعة، بل إدراك حمد أن تداخل رجع الأغنية البدوية مع رائحة القهوة المحمصنة و تجاذب الأصدقاء أطراف الحديث و ضحكاتهم أكد له أنه ينتمي إلى هذا المكان. و تفاعلت أحاسيسه عندما نظر إلى كلاب الصيد السلوقية التي كانت تكمل المشهد المميز، و إلى الصقور التي تقف في الجانب الآخر على أوكارها، و شعر بأنه، فوق انتمائه إلى المكان، أصبح جزءاً من الطبيعة حوله.. "لقد صرت ابن الصحراء.. تماماً كعفراء و مطر."

قال سعيد مماًزحاً غانم عندما كان الأخير يدق حبات البن في المنحاز ببطاء: "يبدو عليك الإرهاق يا غانم. هل أتعبك ابن أختي إلى هذا الحد؟"

أجاب غانم: "أتعيني؟.. لا، و لكنه كان فعلاً كثير الأسئلة." سأله أبو يوسف: "و ما الذي تعلمته اليوم يا حمد؟" أجاب حمد: "تعلمت الكثير عن الصقور و الحبارى و التدخل ❖ من شعر شعبي بعنوان "عاداتنا من سنين" للشاعرة الإماراتية كلثم عبد الله.

المحتويات



البشري.

فسأله سعيد: "و ما الذي يمكن أن تقوله لنا عن التدخل البشري؟"
و توقف غانم عن الدق.

و فكر حمد قليلاً: "الحقيقة... إن عدم حماية الحياة الفطرية يؤدي إلى إخلال التوازن في الطبيعة مما ينعكس سلباً على أعداد الكائنات الفطرية التي تعيش فيه، مثل الحشرات و الطيور و اللافقريات و الحيوانات الأخرى و حتى النباتات."

هز أبو يوسف رأسه بإعجاب و قال: "حقاً، لقد تعلمت الكثير اليوم."
و التقت عينا حمد بعيني غانم فأضاف: "الفضل في ذلك يعود للعم غانم."

و عاد غانم إلى الدق بمنحازه "تات تات تات... تات تات تات.."
و تنهد سعيد و أضاف: "كان علينا القيام بمجهود مدروس وترك فرصة للطبيعة كي تستعيد مواردها شيئاً فشيئاً."

قال حمد: "المعروف أن الناس كانوا في الماضي بحاجة إلى الصيد لتوفير الغذاء، أما اليوم فقد أصبح الصيد مجرد رياضة."

أجابه خاله بلهجة حازمة: "لا يا بني، أبداً، فالصيد ليس مجرد رياضة. إنه منحة ربانية مشروطة. لذلك فعلى الصياد، مثل غيره من الناس، احترام الأرض التي وهبنا الله إياها، و احترام توازن الطبيعة التي خلقها، و القيام بالصيد المدروس الذي يضمن توازن الكائنات الحية."

فتح حمد عينيه بدهشة: "لم أكن أفكر قط بحماية البيئة على هذا النحو، أعني بوصفها واجباً دينياً!!"

أجابه سعيد: "بل هي كذلك. فقد أساء الناس استخدام الموارد

المحتويات

الطبيعية مما سبب ثقباً في طبقة الأوزون بالإضافة إلى هطول الأمطار الحمضية و التصحر و انقراض أعداد مختلفة من الكائنات الحية...
علماً بأن الله تعالى قد قال لنا في كتابه العزيز:
﴿و السماء رفعها و وضع الميزان ألا تطغوا في الميزان﴾
و همس غانم: "صدق الله العظيم."
و خيم الصمت على الجميع. فهذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها حمد بعظم مسؤولية الإنسان تجاه العالم الذي يعيش فيه، والأهم من ذلك شعوره بعظم مسؤوليته هو.

حامي البيئة الصغير

وقف حمد في صبيحة
اليوم التالي في مكانه المفضل
فوق الكثيب الرملي،
و راح يفكر: "ليتني ألمح و
لو طير حبارى واحداً. و لكن
ذلك بعيد الاحتمال، لأنه لو
كان الآن بالقرب مني، لكان
خامراً بدون حراك - أو لكان
قد تحرك بعيداً لدى اقترابي
جاعلاً بيني وبينه الأعشاب
البرية."



شعر حمد بأنه بدأ يفهم
أمور الطبيعة و الحياة البرية الآن أكثر من أي وقت مضى، و أنه أصبح
يعرف معنى حماية البيئة.

جال ببصره في الصحراء الجميلة الممتدة من حوله إلى الأفق، و
رائحة الندى مازالت تتعشه. ففكر بتلك الآيات القرآنية التي ذكرها خاله

المحتويات

مساء الليل الفائت. كان معه مصحف جاء به ليطلع على الآيات الكريمة بنفسه، و فوق الكتيب الرملي أخذ يقلب الصفحات بتأن. ها هي ذي سورة الرحمن. و هبت نسمة باردة داعبت شعره و وجهه و هو يقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان
الشمس و القمر بحسبان و النجم والشجر يسجدان و
السماء رفعها و

وضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط
و لا تخسروا الميزان...﴾

و توقف حمد عن القراءة، و قد مرت أمام مخيلته تلك الحيوانات التي انقضت في البلاد العربية كالنعامة و الفهد ، و أخرى آيلة إلى الانقراض كالمها و عنزة الطهر. و قال في نفسه مؤكداً: "نعم. يجب ألا نتدخل في ميزان الطبيعة الذي خلقه الله. يجب الا نطفى في الميزان."
ثم أتم قراءة الآيات:

﴿والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة و النخل ذات الأكمام و
الحب ذو العصف و الرياح فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾

همس حمد في سره: "لا نكذب بأي منها يا رب..". ثم أغلق الكتاب الكريم بخشوع.

المفاجأة

كان حمد منكباً فوق دفتره يكتب ملاحظاته عندما سمع صوت سيارة تقترب ثم تتوقف خلف الخيام، و سمع بابها يغلق بعنف. و فكر: "لا، هذا ليس أبي، فهو يغلق بابه برفق." و مع ذلك قام ليتأكد، و كان كما حسب تماماً. القادم ليس أباه. فعاد إلى كتابته بعد أن سأل خاله: "أليس من الأفضل أن نتصل بالبيت؟ لقد بدأ القلق يساورني، فقد

المحتويات



وعدني أبي أن يأتي لأرجع معه."

أجاب سعيد: "لم يفت الوقت بعد يا بني، فلا تقلق. و سأخذك بنفسي غداً إن لم يأت أبوك اليوم."

عاد حمد إلي تسجيل ملاحظاته، و قال لخاله، دون أن يرفع بصره عن الدفتر: "لدي عمل كثير أقوم به على حاسوبي الجديد. فالمدرسة تبدأ بعد غد."

كانت الملاحظات التي يدونها حمد بالغة الأهمية، لأنه سيستخدمها في موضوع أشبه بالبحث، درج استاذهم على طلبه منهم في نهاية كل فصل دراسي.

و كان حمد على يقين من أن موضوعه هذا سيكون أفضل ما كتب في حياته كلها. وكان يرى من المهم جداً تدوين مشاهداته كيلا ينساها، بالإضافة إلى أن ذلك يشغله عن القلق لتأخر والده. يا ترى.. هل سيأتي كما وعد؟ كم يشعر حمد بالشوق إلى الأسرة، و كم من أخبار يريد أن يحدث أمه عنها، و هو واثق أنها ستسعد بها. أما أبوه، فلم يكن متأكداً من مشاعره.

سمع حمد صوت سيارة أخرى تتوقف خلف الخيام فانتظر صوت إغلاق بابها.. لا شيء. يبدو أن السائق لم يخرج من السيارة، و من غير الممكن أن يكون هو والده. و بينما كان حمد يحاول العودة للتركيز على مذكراته، إذا به يفاجأ برؤية أبيه وقد وقف إلى جانبهم

المحتويات

قائلاً: "السلام عليكم" و بخاله يلاقي زوج أخته و صديق طفولته ويعانقه بحرارة.

- "أبي!!" قفز حمد و ألقى بنفسه في أحضان أبيه و راح يقبل يده، بينما شده خليفة إليه في عناق حار. "أبي!! لقد اشتقت إليك كثيراً. كنت علي حق يا أبي.. فأنا لا أعرف شيئاً."

ضمه أبوه إلى صدره و بدا وكأنه سيقول شيئاً، و إذا بأبي يوسف يقدم إليهم من خلف الخيام قائلاً: "لقد ترك أحدهم باب سيارته مفتوحاً. لا بد أنه كان على عجل."

مد خليفة يده يصافح أبا يوسف و يقول: "أنا خليفة والد حمد." فأجابه أبو يوسف: "و أنا أبو يوسف، صديق حمد." رفع خليفة حاجبيه و قد استغرب الاسم الذي لا يتوافق مع الشكل. و تابع أبو يوسف: "إنه ابنك الذي أعطاني هذه الكنية، و لن أتخلى عنها بعد الآن." قهقهه خليفة، ثم سأله: "إنها ليست السيارة الزيتية اللون، أليس كذلك؟ فأنا لا أترك باب سيارتي مفتوحاً أبداً."

فأجابه حمد و في عينيه بريق تخابث: "لقد فعلتها هذه المرة يا أبي!!"

القنص

اصطحب حمد والده في جولة داخل المخيم، عرفه خلالها بمن فيه، و أوضح له عمل خاله سعيد و فريق العمل. قال حمد لأبيه: "إنهم سيطلقون هذه الصقور بعد أسابيع قليلة.. أليس هذا رائعاً؟"

وافقه خليفة الذي بدا عليه الاستمتاع فعلاً بهذه الجولة. و بعد صلاة العصر من ذلك اليوم، سمع حمد و خليفة أصواتاً تقول: "روحنا.. روحنا.. لنذهب!"
سأل حمد أباه: "ما الأمر يا أبت؟"

المحتويات



أجابه: "إنهم ذاهبون للقنص يا حمد."
دهش حمد و بدأ يتكلم: ظننت أن..."
فقاطعه أبوه: "سيكون القنص هذه المرة على شرفك يا بني. هيا
نتبعهم."

قال حمد في نفسه: "على شرفي أنا؟ الحمد لله!"
و هكذا تبع الأب و ابنه مجموعة القنص، و في نفس كل منهما يعتمل
شعور خاص.

راقب حمد أسلوب تقصي جماعة الصيد للكروان، بينما كان أبوه
يفسر له ما يراه. بدأ جابر أولاً بتقصي آثار الكروان على الأرض، فقال
خليفة: "أنظر بني؟ هنا كانت تقنصت ليلاً." ثم تتبع جابر الآثار حتى وجد
الجهة التي أقنعت إليها الكروان و صرخ: "هذه وجهتها!" وذهل حمد حين
رأى الركب يقلع سريعاً بالسيارات إلى عكس الجهة التي أشير إليها،
فضحك خليفة وقال: "تلك هي عادة الكروان. تقلع في عكس اتجاه المكان
الذي ستقضي فيه يومها!"

و فعلاً، فقد وُفقوا في العثور على أربعة منها جاثمة كالصخور تحت
ظل الشجيرات الصغيرة. و أخذوا يفصلون الطير تلو الآخر فيبرز
الكروان فجأة وقد أجفله ما يجري ويأخذ في التحليق هارباً وقد ثنى
رجليه الصفراوين تحته. سمح لثلاثة منها بالهرب في الافق البعيد قبل
إطلاق الصقر خلف الرابع، و تسارعت ضربات قلب حمد لتواكب ضرب
جناحي كل من الصقر و الطريدة وهما يتعدان في الجو واحداً في إثر
الآخر. و كان الاختلاف واضحاً في شكليهما، فجناحا الكروان مدببا
الشكل، لونهما أبيض و أسود، أما جناحا الصقر فدائريان تقطعهما
مشحات من اللونين البني و الأبيض.

المحتويات

و أخذت المسافة بين الطيرين تتقارب شيئاً فشيئاً لتفوق الصقر بسرعة طيرانه، و كانت مطاردة رائعة، و ما كاد الصقر يحاذي الكروان حتى هوى هذا للجهة اليسرى، لتتباعد المسافة بينهما مرة أخرى. و عاد الصقر، فلحق بطريدته بحيث بدا وكأنهما يطيران جنباً إلى جنب، ثم مال الصقر في طيرانه إلى اليسار قليلاً، لكنه عاد فجأة و بصورة غير متوقعة، فانحرف نحو اليمين بسرعة فائقة. و كان الكروان قد انحرف نحو اليمين محاولاً تجنب انقضاض الصقر المتوقع من اليسار.. و إذا بمخالب الصقر الحادة تمسك به. و هبط الصقر بانسياب فارشاً جناحيه ممسكاً بالكروان، بينما راح الجميع، بما فيهم خليفة، يهتفون لبعضهم: "صايد يا بو العوايد!"

فعانق حمد أبيه فرحاً ثم انطلق إلى خاله سعيد و بقية الرجال ل كي يشكرهم على إتاحة هذه الفرصة الرائعة له، و شاركهم بصوت عال: "صايد يا بو العوايد! و الله صايد يا بو العوايد!"

و في أثناء العودة إلى المخيم، فكر حمد.. عشاء الصقور سيكون الليلة طريدة طازجة. لقد عرف حمد، و لأول مرة، معنى أن يكون الإنسان صياداً. صحيح، إن الصيد منحة، و احترام الطبيعة أمانة علينا، و واجبنا ألا نخسر الميزان. "آمل أن أستطيع شرح هذا كله لأصدقائي في المدرسة."

قصة خليفة

سأل خليفة: "كانت تلك مطاردة رائعة، أليس كذلك يا حمد؟" أجابه حمد: "نعم يا أبي، و لكن كان من المؤسف لو تمكنت طيور الكروان جميعها من الإفلات."

قال خليفة: "مؤسف؟.. لا، أبداً. إن المطاردة أهم ما في عملية الصيد. ليس الإمساك بالطريدة هو الإنجاز الوحيد، بل المطاردة هي

المحتويات

التي تعطينا صورة الطبيعة الحية و من خلالها يبرز الصقر مهاراته في الصيد. إنه صراع البقاء.. و البقاء دائماً للأقوى و للأكثر ذكاءً، أما نجاح الطريدة في الإفلات، فيشكل تحدياً يجعل المطاردة التالية أكثر إثارة و حماسة."

- "و لكن الصقر هو الذي يقوم دوماً بدور المطارد، أليس كذلك؟"
هز خليفة رأسه بالنفي: "لا!! إن الأمر ليس كذلك دائماً. إن لم يكن الصقار حذراً فقد يصبح صقره هو الطريدة."

- "طريدة؟ و لمن؟"
- "طريدة لطير أكبر وأقوى منه، كالنسر مثلاً."
- "ياه!!" و شهق حمد للمفاجأة، ثم تذكر شيئاً فقال: "أبت!!" و بدا عليه التردد في إتمام الحديث. ابتسم خليفة لابنه مشجعاً، فقال حمد: "من الواضح أنك تعرف الكثير الكثير عن الصقور. فلماذا لم تحدثنا عنها من قبل؟" اختفت ابتسامة خليفة، فسارع حمد يعتذر لأبيه: "لا بأس يا أبي، آسف أنني سألتك."

أجابه خليفة: "لست أنت من يجب أن يشعر بالأسف. ليرض الله عنك يا بني. أظن الوقت قد حان كي أخبرك بشيء" و كان في نظرات أبيه ما يشير إلى أن لديه الكثير مما يقوله.
قال حمد: "أعرف مكاناً يمكننا التحدث فيه." و أمسك بيد أبيه و اتجه به نحو التلة.

ما كاد الأب و الابن يجلسان فوق الكثيب الرملي، حتى راحت تتفتح صفحات قصة طويلة حزينة. علم حمد أن جده كان يدرب والده خليفة منذ صغره ليكون صقاراً مثله و قد أعطاه صقراً أشقراً رائعاً - كما توقع حمد- و كان اسمه شقران. ثم أضاف خليفة: "كنت أحبه كثيراً و أقضي أوقاتاً طويلة معه. كنت أعتقد أنني أعرف عنه ما لا يعرفه أحد، حتى أبي. لم أعد أستطيع الانتظار حتى أصبح صقاراً مكتمل الخبرة، فخالفت يوماً تعليمات والدي. كان علي في الواقع تعلم الكثير قبل أن أطلق صقراً وحدي، و كان يجب ألا أفعل ذلك..." و ارتعشت نبرات صوته: "خرجت إلى الصحراء، و رغم أن الوقت كان قبيل الظهيرة

المحتويات

إلا أن الجو كان حاراً للغاية. ظلَّ شقران يرفرف بجناحيه وهو على يدي محاولاً الإفلات... فأطلقته. كانت تلك إحدى الأخطاء التي ارتكبتها ذلك اليوم. بعد أن لوحت بالتلوة تبين لي خطأ ثان، إذ كنت قد أسرفت في إطعام شقران و لم يكن جائعاً فتجاهل الطعم و حلَّق بعيداً عني إلى الأعلى.. باتجاه طبقات الجو الباردة. و في تلك اللحظة أدركت أمراً مروعاً، و هو أن شقران قد طار و المرسل ما زال معلقاً بسبوقه.. إذ لم أكن قد ثبتته عندي جيداً في المنقطة.. فسحب منها!!

لم يستطع حمد الكلام فمضى والده في الحديث: "كان الهواء ساخناً و الطيران صعباً، مما جعل شقران يتجه إلى الأعلى حيث التيارات الباردة. ناديته مراراً بأعلى صوتي دون جدوى، كان يتجاهلني و هو يرتفع بجناحيه عالياً."

توقف خليفة قليلاً ثم تابع: "بحثت عنه في الصحراء فلم أجده ذلك اليوم أو اليوم الذي تلاه، و لكنني، و بعد ثلاثة أيام وجدته... و كان ميتاً، يتدلى من شجرة غاف، و قد التف المرسل بأحد أغصانها. قتله الإرهاق فيما يبدو و هو يحاول تخليص نفسه من الخيط الذي ازداد تشابكاً بالأغصان مع كل حركة منه. لقد مات صقري شقران ميتة مريعة.. و كنت أنا من تسبب في موته لعدم انصياعي لنصيحة أبي..."

بدا التأثير على وجه حمد، و قفزت أمامه صورة غانم وهو يرفض في اليوم السابق أن يطير الصقر وقت الظهيرة رغم إلحاحه عليه.. و فكر حمد: "كان من الممكن أن أتسبب في ضياع أو موت صقر أيضاً!" و إذ تذكر حلمه فهم إحساس والده بالذنب فوضع يده الصغيرة في يد أبيه الكبيرة.

و استرسل خليفة: "في تلك اللحظة بالذات أقسمت ألا أقرب من أي صقر في حياتي. و بما أن الصحراء توقظ في نفسي ذكريات محزنة فقد جافيتها هي أيضاً، لدرجة أنني لم أعد أرغب في التحدث عنها أو سماع اسمها."

- "لكنك هنا الآن يا أبي!"

المحتويات



- "صحيح.. إنني هنا الآن في هذه الصحراء العظيمة. يا الله!! لقد نسيت.. ما أروعها!"
قال حمد برنة حزن: "و أنا أيضاً!"
- "أنت أيضاً.. ماذا؟"
- "أعني أنا أيضاً كدت أنسى ما أروع أن نكون معاً يا أبي." ترقرقت الدموع في عيني خليفة: "لم نكن نقضي الكثير من الوقت معاً في الآونة الأخيرة يا بني. أليس كذلك؟ إنني أسف.. وستتبدل الأمور من الآن.. صدقني."
- "إنني أصدقك يا أبي. ألم تأت كل هذه المسافة إلى قلب الصحراء، لتأخذني؟"
- "ليس هذا فحسب، بل أريد أن أساعدك على تحقيق أحلامك، و قد يكون لك حلم مشابه لحلم قديم لي، هذا، إن كنت -بعد أن قضيت أياماً في الصحراء- تود مثلاً، أن تكون صقاراً."
- "بالطبع يا أبت. هذا حلمي الدائم من الصغر، منذ أن بدأت أمني تحكي لي قصص عفراء و مطر."
- "و من هما عفراء و مطر؟"
- "الأخوان اللذان يعيشان في الصحراء."
صمت خليفة لحظات، ثم ضحك.. : "لقد فعلتها إذن!! إن النساء يجدن دائماً طريقة لتنفيذ رغباتهن. لقد طلبت من مريم -بسبب حادثة الأشقر- ألا تتحدث عن طفولتها و طفولة سعيد في الصحراء. ويبدو أنها تحايلت علي الموضوع، و قصت عليك قصص أخوين آخرين.. عفراء و مطر.. و هز رأسه: "حقاً، إن أمك امرأة ذكية بالفعل."

المحتويات

أدرك حمد الآن لماذا لم تذكر أمه الحقيقة كلها!! و تابع خليفة حديثه: "إن مريم بنت الصحراء أولاً و آخرأ، تعرف جميع أسرارها. و ستكون عوناً لنا عندما نذهب إلى البر كلنا."
- "و عائشة؟"

- "نعم، و عائشة أيضاً."

و عندما وقفا يتهيآن للعودة إلى المخيم، قال حمد ببعض التردد: "أبي. إن حلمي قد كبر كثيراً بعد كل ما رأيته هنا. فأنا الآن أتمنى أن أصبح حامياً للبيئة أيضاً."

و ضع خليفة يده على كتف ابنه، و اتجها نحو المخيم و هو يقول له: "بل أنت كذلك يا بني. إنك حقاً من حماة البيئة."

و في فجر اليوم التالي ودع الأب و ابنه الأصدقاء و استقلا السيارة عائدين إلى المدينة. لقد مضت على حمد أربعة أيام و نصف اليوم في الصحراء، مرت كالحلم القصير. كان و أبوه يعرفان، رغم قرب انقضاء عطلة المدرسة، أن أيام الصقار الصغير قد بدأت الآن.

العودة إلى المدينة

بدت رحلة العودة قصيرة جداً. في البدء كانت الطرق صحراوية رملية،

و من ثم و صلا إلى طريق المدينة، بدوراته و حدائقه و إشارات مروره

و جسوره. و راحا يعبران شوارع عريضة و أخرى ضيقة، و يمران بدكاكين و مستودعات و مطاعم و أبنية شاهقة و منخفضة.. كلها تمر أمام عيني حمد كلمح البصر.

و سأل حمد أباه قبل توقف السيارة أمام منزلهم الأبيض الصغير: "أبي.. هل أخبر أصدقائي بمفاجأة أمس؟"

لم يكن حمد يعني بذلك رحلة القنص، بل ما حدث في أثناء الليل

المحتويات



الفأث مما لم يكن في الحسبان. فقد كان حمد مستلقياً بسكون إلى جانب والده فوق الكثيب الرملي يتأملان السماء بنجومها وقمرها المكمّل بدرأ عندما شاهدا في الجو فوقهما ثلاثاً من الحبارى تطير في طريق هجرتها إلى الشمال وقد ارتسمت أشكالها الأنيقة تتساب سواداً على صفحة السماء الصافية التي غمرها ضوء القمر الفضي. لقد كان هذا المنظر النادر ساحراً بكل ما في الكلمة من معنى! أجابه خليفة: "نعم.. إن شئت أخبرهم."

قال حمد بحزم: "أظن أنني سأفعل.. و لكنني سأحدثهم أولاً عن صفات الحبارى المميزة، و أشرح لهم ما تعلمته، ليصبحوا جميعاً من حماة البيئة." تبسم خليفة و هو يغادر السيارة: "فكرة جيدة، هيا يا حمد، تعال." قفز حمد خلفه و هو يقول: "أتدري يا أبي؟ قد تكون الحبارى التي رأيناها ليلة أمس عائدة إلى الصين، و قد يكون على أحدها جهاز إرسال خالي سعيد!!"

ضحك خليفة و قال موافقاً: "هذا جائز. بإمكاننا الاتصال على الهاتف بسعيد غداً لمعرفة الأخبار."

صاح حمد بمرح واضح: "نعم. يجب أن نتصل بالخال سعيد غداً. ثم توقف لحظة و نظر إلى الأعلى، إلى سماء واسعة، صافية، زرقاء: "سبحانك اللهم.. ما أروع هذا الكون!!" و تردد صوت حمد يقول: "لن أكف عن التعلم بإذن الله."

فرد عليه أبوه مبتسماً: "هذا ما أثق به." و تشابكت يدا الأب وابنه، واتجها نحو البيت.

دتمت